الباب الثالث

الصهيونية

obeikandl.com

الفصل الأول

الصهيونية غير اليهودية

الصهيونية غير اليهودية، أو صهيونية الأغيار، أو الصهيونية المسيحية، أو الصهيونية اللاسامية بالتعريف هي مجموعة معتقدات وقيم متعددة (وهي إما دينية أو سياسية) يحملها أشخاص غير يهود (غالبا هم مسيحيون)، وبالأخص هم من البروتستانت، وقد نشأت هذه الصهيونية في عصر النهضة الأوربية، والذي شهد أيضا ظهور يهود البلاط، وقد برزت الصهيونية، وارتفع صوت خطابها مع ظهور الدولة المطلقة في أوربا، التي اشتدت فيها ظاهرة معاداة اليهود، والتي ترافقت مع حركة التنوير اليهودية.

والصهيونية غير اليهودية (كما هي الصهيونية اليهودية) ترى أنه يتوجب أن يتم إعادة اليهود (على اعتبار أنهم يشكلون شعبا عضويا منبوذا تربطه علاقات تاريخية سياسية مشتركة) من شتاتهم إلى وطنهم المقدس في فلسطين (أرض إسرائيل) وأن يقيموا كياناً قومياً دينياً فيها، والصهاينة غير اليهود ينتسبون إلى ثلاث منظومات أو ثلاث جماعات:

- الأولى دينية مسيحية بروتستانتية، وهي تنطلق من الإيمان بالعقيدة الألفية السعيدة الاسترجاعية التي أتت في كتب الأبوكريفيا (حلول ألف سنة سعيدة على البشرية جمعاء)، وعقيدة الألفية السعيدة ترتكز على ثلاثة مبادئ هي:

أولا : إن اليهود هم شعب الله المختار.

ثانيا: إن هناك ميثاقا إلهيا أبديا مقدسا يربط بين شعب الله المختار (اليهود)، وبين الأرض المقدسة (أرض فلسطين).

ثالثا: إن الألفية السعيدة ستتحقق بعد مجيء المسيح المنتظر، وسيستمر حكمه ألف عام يحل فيه العدل والسلام، ويكون فيه اليهود حكام العالم، وهذا لن يتحقق إلا من خلال عودة اليهود إلى أرضهم المقدسة في فلسطين، ومن ثم تنصيرهم.

وتذهب هذه الصهيونية إلى أن الله يركّز على الوصول إلى خلاص شعب الله المختار، وأرضه المقدسة، وأن العجلة تمضي قدما، وسيكون هناك بعض التجاوزات، والعنف، والمظالم، التي لا بد منها للوصول إلى الخلاص التام، وإقامة المملكة المسيحانية، والوصول إلى العصر الألفي السعيد، ولا بد من أن يقوم الإنسان (المسيحي الغربي) بدوره اللاهوتي لخلق الوقائع التي تسهل عملية، أو تمثيل سيناريو الخلاص البشري الشامل، لا لليهود، والمسيحيين فحسب.

وحسب رأي الصهيونية المسيحية، والمسيحية الأصولية، واليهودية الأصولية، فإن الوصول إلى الخلاص يفرض على العالم أن يقدم ما استطاع من الجهود لإعادة اليهود (شعب الله المختار) إلى فلسطين (أرض الميعاد)، وهذا يسوغ، أو يجعل الاعتداءات على

فلسطين أرضا وشعبا مسوغة، وضرورية، لأنها تنسجم مع تحقيق الإرادة الإلهية، وبالموجز يُعَدّ اليهود، حسب التصور الصهيوني المسيحي البروتستانتي، هم مفتاح المستقبل التاريخي.

- أما المنظومة أو الجماعة الصهيونية غير اليهودية الثانية فهم المسيحيون، والسياسيون اللاساميون الأروبيون، وهذه المنظومة تعود في غالبيتها إلى المذهب الكاثوليكي، وهي تذهب إلى أن اليهود يمثلون الشر بعينه أينما حلوا وارتحلوا، ولذلك لا بد من التخلص منهم بإبادتهم أو بطردهم أو إبعادهم من أوربا، وتُعَدّ النازية في بعض جوانبها صهيونية لاسامية اتخذت في البداية للتخلص من اليهود سياسية الإبعاد والتهجير، كما هو الأمر بالنسبة للبلفورية (نسبة إلى بلفور صاحب الوعد الشهير)، وفي النهاية تبنت النازية سياسة إبادتهم طريقة مثلى للتخلص منهم.

وهذه الصهيونية اللاسامية هي التي ساهمت بدفع اليهود للهجرة نحو فلسطين، لتكون أرض الميعاد، بالنسبة لليهود معتقلات بمعنى أو آخر، أو على أقل تقدير غيتو عالمي، ينعزل فيه اليهود عن المجتمع، والحضارة الغربية الأوربية، والتي يمكن لها، بالوقت نفسه، وفيما لو كان هناك ضرورة، جعل هذا الغيتو هولوكست نووي، أو هولوكست مزدوج لليهود، والعرب المسلمين، كي تنتصر الصليبية المسيحية، على اليهودية، والإسلام معا.

- أما المنظومة الصهيونية غير اليهودية الثالثة فهي الصهيونية السياسية الاستعمارية الرأسمالية الإمبريالية الغربية، والتي تذهب إلى أنه يمكن استغلال اليهود من خلال توطينهم في فلسطين للهيمنة على المنطقة العربية، ومحيطها الجغرافي.

وهذا التصنيف بين الصهيونيات غير اليهودية يميل لأن يكون نظريا، فقد تشترك في الصهيونية غير اليهودية أكثر من منظومة في آن واحد، فقد يكون بعض الصهاينة مسيحيين استعماريين، وبعض الصهاينة مسيحيين لاساميين، ولاساميين استعماريين، وغير ذلك، وقد نشأت الصهيونية غير اليهودية قبل الصهيونية اليهودية بقرابة قرنين من الزمان، والصهيونية غير اليهودية سبقت وأسست للصهيونية اليهودية، وتُعَدّ الصهيونية المسيحية هي أولى الصهيونيات تشكّلا، وهي الأقوى، ومنها، وعلى أساسياتها تشكلت الصهيونية اللاسامية، والصهيونية الاستعمارية، وأخيرا الصهيونية اليهودية.

الصهيونية غير اليهودية
بين
البروتستانتية والكاثوليكية

كانت الكنيسة الكاثوليكية تنظر إلى اليهود من خلال تقاطع نظرتين:
الأولى تذهب إلى أن اليهود هم من تنكروا للمسيح، ومن ثم هم من كانوا وراء صلبه.
والثانية تذهب إلى أن اليهود هم الشعب المتنبئ لمجيء المسيح، والشاهد على ظهوره، ومن ثم على الكنيسة المسيحية، ولذلك كان المسيحيون الكاثوليك يحرصون على بقاء اليهود باعتبارهم (الشعب الشاهد) على انتصار الكنيسة المسيحية، كما أن هذا التصور يذهب إلى أنه يتوجب على المسيحيين معاقبة اليهود، وإذلالهم باعتبارهم قتلة المسيح، وكان هذا التصور أيضا ينظر إلى اليهود على أنهم (أغبياء يحملون كتابا ذكيا)، والبعض من الكاثوليك كانوا ينظرون إلى اليهود من خلال مقولة الكنيسة الكاثوليكية: (أن تكون يهوديا فهذه جريمة، ولكنها لا توجب على المسيحي أن ينزل بصاحبها العقاب، فالأمر متروك للخالق)، وبموجب هذه النظرة تم توظيف اليهود على اعتبار أنهم (الشعب العضوي المنبوذ).

كما أن أتباع المذهب الكاثوليكي لا يعتقدون بوجود أمة يهودية، ولا يؤمنون بأساطيرها أيضا، فهم يرون أنه بسبب آثام اليهود تم سبيهم إلى بابل كعقاب إلهي في القرن السادس قبل الميلاد، ويرون أيضا أن النبوءات المسيحية في التوراة تحققت بعودة اليهود على يد قورش، ولكن، وبسبب إنكار اليهود لعيسى ابن مريم على أنه المسيح المنتظر، تم تشتيتهم في أصقاع العالم إلى الأبد كعقاب إلهي آخر.

كما أن المذهب الكاثوليكي يرى أن المستقبل المشرق لليهودية الذي جاء ذكره في التوراة قد تم من خلال المسيحية، وأن فلسطين هي للمسيح والمسيحية التي جاءت لا لتنقض الناموس بل لتصححه وتكمله، وأن استمرار وجود اليهود بذلّهم يشكّل شاهدا على انتصار وعظمة الكنيسة المسيحية (عقيدة الشعب الشاهد الكاثوليكية)، ويرى البابا شنودة الثالث أن الرب كان فيما مضى قد جعل من شعب محدد شعبا مختارا، لأن الحاجة في تلك الفترة كانت تقتضي ذلك في مجتمع وثني، ولكن مع مجيء المسيحية وانتشارها، واندحار الوثنية فقد سقطت فكرة شعب الله المختار، وعقيدة شعب الله المختار كانت مشروطة، بالتزام الشعب المختار ببنود العقد مع الرب والالتزام بالقيم والأوامر والنواهي الإلهية، وقد كان أكثر الأشخاص الصهاينة غير اليهود اللاساميين (أعداء اليهود) هم من الكاثوليك.

وهذا مخالف تماما لتصور المذهب البروتستانتي الأكثر حداثة من المذاهب المسيحية الكبرى، وهو الذي انتشر في عصر النهضة فيما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، وقد اعتبر المذهب البروتستانتي أن التوراة كتابا دينيا منزها، ومرجعا

تاريخيا لا يرقى إليه الشك، ويجب قراءته بطريقة بسيطة مباشرة غير تأويلية، على عكس تعقيدات اللاهوت المسيحي الكاثوليكي، كما اعتبر هذا المذهب أن اللغة اليهودية لغة مقدسة، وعلى الجميع معرفتها، كما اعتبر هذا المذهب أيضا أن فلسطين هي وطن اليهود المقدس الذي يجب أن يعودوا إليه حسب النبوءات التوراتية، على اعتبار أن عودة المسيح (المجيء الثاني للمسيح) تشترط أولا عودة اليهود إلى الأرض المقدسة، وبعدها يحل العهد الألفي السعيد بعد مجيء المسيح المنتظر في نهاية الزمان، وبالتالي فإن المذهب البروتستانتي يرى أن اليهود شعب مقدس يشكل عنصرا أساسيا في الأحداث الكونية التي يشكل التاريخ العام جزءا منه، كما يشكل التاريخ اليهودي حالة خاصة ومنعزلة عن التاريخ العام، في الوقت الذي يشكل فيه هذا التاريخ الركيزة الأساسية للتاريخ العالمي، وبذلك تم استبدال عقيدة (الشعب الشاهد) الكاثوليكية بالعقيدة (الألفية السعيدة الاسترجاعية البروتستانتية)، وهي التي قادت إلى تشكيل الصهيونية المسيحية الاسترجاعية، وكان هذا الإصلاح الديني له أثر كبير في اندخال اليهودية في الفكر والأدب والفن الأوربي.

وبينما كانت اليهودية تنتظر مجيء المسيح اليهودي ليعود بهم إلى أرض الميعاد، ومنها، وعليها، يحكمون العالم (خلاص شعب الله المختار فقط)، فإن المسيحية البروتستانتية تنتظر في الوقت نفسه عودة المسيح (يسوع الناصري) مرة ثانية، وحسب قول الأصولية المسيحية الإنجيلية {إن مصيرنا مشترك، فاليهود ينتظرون المسيح ليجيء، ونحن المسيحيين ننتظر المسيح ليعود، وعلى أي حال ستتوحد المسيحية واليهودية من جديد بمجيئه أو بعودته، وسندرك جميعا أن هذا هو المسيح الذي كنا ننتظره}، وهو الذي سيدخل المسيحية في العصر الألفي السعيد (الخلاص لكل البشر)، وهذا لن يتحقق إلا بعودة اليهود، وبناء الهيكل الثالث (مكان مسجد قبة الصخرة)، وهذا سيؤدي إلى انطلاق أحداث نهاية التاريخ حسب التصور التاريخي الديني لهذه الأصولية {إن إنشاء دولة إسرائيل أهم حدث في التاريخ المعاصر، إنه يمثل الخطوة الأولى نحو بداية نهاية الزمان}، وهذا التصور تم بناؤه على ما جاء في العهد الجديد «فإني الحق أقول لكم إلى ان تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل. فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر في ملكوت السموات. وأما من عمل وعلّم فهذا يدعى عظيما في ملكوت السموات.» متى٥، وقد تطورت المسيحية الأصولية من حالة التصور العقيدي، إلى أيديولوجيا سياسية، وهو ما دعيت بالصهيونية المسيحية.

وبينما تُشكّل فلسطين بلاداً مسيحية مقدسة في المعتقد الكاثوليكي، فقد أصبحت فلسطين في المعتقد البروتستانتي هي الأرض اليهودية المقدسة، أو الأرض المقدسة للشعب المختار، والتي يجب أن يعود إليها الشعب المختار كمقدمة لمجيء المسيح المنتظر، وليأذنوا بدخول العصر الألفي السعيد، وهذا المعتقد يشكل حجر الزاوية في الخلاص البروتستانتي، والذي يقوم على الأركان الثلاث التي سبق ذكرها، وهي:

أن اليهود هم شعب الله المختار.

وأن هناك رباطاً إلهياً مقدساً بين الشعب اليهودي المقدس، والأرض المقدسة.

وأن المجيء الثاني للمسيح مرتبط بعودة اليهود إلى الأرض المقدسة، وتشكيل دولة إسرائيل ثانية كمقدمة شرطية لعودة المسيح، والتي لن تتحقق إلى بقيام دولة إسرائيل (التي قامت سنة ١٩٤٨م)، واحتلال مدينة القدس (التي تحققت سنة ١٩٦٧م)، وإعادة بناء هيكل سليمان، ومن بعدها قيام حرب هارمجدون الكونية، والتي تسعى المسيحية الأصولية البروتستانتية إلى تحقيقها، وقد تفشت هذه الأفكار بشكل واسع في المحيط الإنكليزي، ولا سيما أثناء حرب الثلاثين عاما (١٦١٨ - ١٦٤٨م).

وكان أبو المسيحية البروتستانتية مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦م) في البداية قد شجّع أتباع مذهبه البروتستانتي على التسامح مع الجماعات اليهودية، من أجل كسب اليهود، الذين، حسب قول مارتن لوثر، {إذا أردنا أن نجعلهم خيرا مما هم، فعلينا أن نعاملهم حسب قانون المحبة المسيحي، لا قانون البابا، علينا أن نحسن وفادتهم وأن نسمح لهم بأن يتنافسوا وأن نتيح لهم فرصة فهم الحياة والعقيدة المسيحيتين، وإذا أصر بعضهم على عناده فما الضرورة في ذلك؟، نحن أنفسنا لسنا جميعا مسيحيين صالحين}، {إن الله خلق اليهود أسيادا، وما نحن إلا الكلاب التي تأكل من فتات موائدهم}.

ولكن مارتن لوثر الناسك ذا المزاج العصبي تراجع عن خطابه الديني المتسامح هذا في سياق مسيرته، وتبنى موقفا شديد التطرف، بل وأشد تطرفا من المذهب الكاثوليكي، فشرّع وحرّض على القيام بممارسات اضطهادية ضدهم، وهو في هذا السياق يقول {أيقنت أن اليهود أناس غلاظ الأكباد، انحرفوا عن شريعة موسى، وزوروا كتبه وأقواله، أما معابدهم فما هي إلا مواخير للفسق والفجور، فيجب علينا إحراق كتبهم المزورة، وتدمير معابدهم القذرة لننقذ شعبنا من خطرها، فلو عاد موسى بنفسه للحياة لأمر بحرقها، وإزالتها من الوجود}، ويتابع في وصفه لليهود {هم وحوش ضارية، وأفاع سامة، يجب مطاردتهم حيثما كانوا والقضاء عليهم كما يقضى على الكلاب المسعورة}.

كما نادى بطرد اليهود من العالم الأوربي إلى فلسطين، وقد صرح سنة ١٥٤٤م {من يمنع اليهود من العودة إلى أرض يهودا؟ لا أحد.. سوف نزودهم بكل ما يحتاجون إليه في سفرهم.. لا لشيء إلا لنتخلص منهم. إنهم عبء ثقيل علينا. إنهم مصيبة كبيرة على وجودنا} {فالتخلص من اليهود هو الهدف الأسمى}، وقد تفشى هذا الخطاب اللوثري في شكليه التسامحي والعقابي:

فقد قال عالم اللاهوت توماس برايتمان (١٥٦٢ - ١٦٠٧م) {إن اليهود كشعب سيعودون ثانية إلى وطن آبائهم الأوليين لا من أجل الدين، كما لو أن الله لا يمكن أن يعبد في مكان آخر، بل لكيلا يكافحوا كغرباء ونزلاء لدى الأمم الأجنبية}.

وكان من أتباعه هنري فنش عضو البرلمان الإنجليزي، ومستشار الملك، وهو الذي قال مخاطبا اليهود بصيغة تذكرنا بنبوءات أنبياء اليهود المتأخرين {إن الله سيجمعكم من كل الأماكن التي تفرقتم فيها، وسيعيدكم إلى وطنكم}.

ويقول الشاعر الإنكليزي جون ملتون (١٦٠٨ - ١٦٧٤م) في قصيدة بعنوان الفردوس المفقود:

{لعـــــــل الله الـــــــذي يعـــــــرف الوقـــــــت المناســـــــب
سيشـــق لهـــم البحـــر وهـــم عائـــدون مســـرعين جـــذلين إلـــى وطـــنهم
كمــا شــق البحــر الأحمــر ونهــر الأردن عنــدما عــاد آبــاؤهم إلــى الأرض"}.

أمـا سـبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧م)، وهـو الفيلسـوف اليهـودي الـذي تـم طـرده مـن حظيرة الدين من قِبل المؤسسة الحاخامية، فكان يـرى أن حل المشكلة اليهودية يتمثل إما في اندماجهم الكامل في مجتمعاتهم الأوربية التـي يعيشـون بـين ظهرانيهـا، أو فـي عودتهم إلى فلسطين.

أما فيختـه فقد قـال {لا يوجد بديل إلا بغزو أرض الميعاد وإرسـالهم إليهـا، لأنهم لو حصلوا على حقوقهم المدنية في أوربا فإنهم سيدوسون على كل المواطنين الآخرين}.

أما فيليب دي لانجالري (١٦٥٦ - ١٧١٧) وهو جنرال فرنسي مغامر، فقد تقدم بعرض عجائبي إلى السلطة العثمانية يقوم على أن يقود هو بنفسه جيشا من الحجاج المتنكرين إلى الفاتيكان حيث هناك يلقي القبض على البابا، ويسلّم روما للأتراك، مقابل أن يمنحـه العثمـانيون جزيـرة فـي المتوسـط لتـوطين اليهـود فيهـا تحـت حمايـة السـلطنة العثمانية.

أما أديسون فقد كتب سنة ١٧١٢م ما مفاده أن اليهود يشبهون الأوتـاد والمسامير في البناء، فهي أدوات لا قيمة لها بذاتها، لكنها ذات أهمية كبرى بالنسبة لاحتفـاظ البنـاء بهيكليته، وهو بذلك عبّر بطريقة مزدوجة عن هامشية الجماعات اليهودية، وعن أهمية، بل وضرورة هذه الحالة الهامشية، وهذا الخطاب هو نفسه ما كان قد ردده مـاركس بعد قرابة قرنين من الزمـان، حيث كـان يـرى أن اليهود هامشيون، ولكن علـى الـرغم من هامشيتهم وحرمـانهم مـن حقـوقهم المدنيـة والسياسـية، إلا أنهـم هـم مـن كـانوا يصـنعون مصير الكثير من الدول، بل مصير أوربـا كاملـة، وبمعنـى آخر إن الهامشية اليهوديـة كانت تمـارس قرارات مركزيـة مـن خـلال وظيفـتهم كأقنـان للملك، ومـن خـلال بيوتـات المال اليهودي.

ومن الصهاينة غير اليهود المشهورين في تلك الفترة جون لوك (١٦٣١ - ١٧٠٤م)، وإسحق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧م)، وجوزيـف برسـتلي (١٧٣٣ - ١٨٠٤م)، وجيم بشـينو الـذي نشـر سـنة ١٨٠٠م كتابـه (عـودة اليهـود.. أزمـة جميـع الأمـم) الـذي طلـب فيـه حكـام بريطـانيا {باستخدام نفوذهم لدى الباب العالي للتخلي عن هذا الجزء من الأرض الـذي طُـرد منه اليهود، وإعادته إلـى أصـحابه الشرعيين}، وهنـري إنـس الـذي طالـب مـن الأوربيين أن يتمثلوا بقورش الذي أعاد اليهود إلى أرض الميعاد.

ومن ألمانيا بول فيلجنهوفر الذي نشر كتابـه (أخبـار سـعيدة لإسرائيل) سنة ١٦٥٥م، والذي قال فيه {إن اليهود سوف يعترفون بالمسيح على أنه مسيحهم بمناسبة مجيئه الثاني}.

ومـن السـويد أنـدريس كيمـب الـذي نشـر كتابـه (أخبـار إسـرائيل السـارة) سـنة ١٦٨٨م.

وفي الدانمارك طالب هولجر باولي الأوربيين أن يقومـوا بحملـة صـليبية جديدة علـى الشرق وتوطين اليهود في فلسطين.

ومن الصهاينة غير اليهود في تلك الفترة أيضا جوزيف سلفادور (١٧٩٦ - ١٨٧٣) وهو طبيب ومفكر فرنسي، وكان قد طرح تشكيل معتقد ديني يزاوج بين اليهودية والمسيحية، ويكون مقره في مدينة القدس، وهو يُعَدّ من أسلاف الصهيونية، ومنهم أيضا:

آدم مكيفتش (١٧٩٨ - ١٨٥٥) وهو شاعر بولندي (فرانكي) كان يحلم بتنصير اليهود، وقد حاول أن يشكل فرقة يهودية يكون هدفها بعث الأمة اليهودية.

بنديتو موسولينو (١٨٠٩ - ١٨٨٥م) وهو سياسي إيطالي، ومن خلال بحثه لحل المسألة اليهودية، والذي طرحه في كتابه (القدس والشعب العبراني)، حرض بريطانيا على تشكيل إمارة يهودية في فلسطين تكون العبرية لغتها، واليهودية دينها، وأن تكون تحت حماية السلطنة العثمانية.

جورج إليوت (١٨١٩ - ١٨٨٠) وهي روائية صهيونية لاسامية، وكانت قد قالت {إن كل شيء يهودي هو شيء وضيع على وجه الخصوص}، وقد حثت على تأسيس كيان يهودي يشكّل مركزاً عضوياً للعرق اليهودي، ويُعَدّ الصهاينة أن روايتها (دانيل ديروندا) هي وعد بلفور الأدبي.

أما المؤرخ والتربوي البريطاني جولدوين سميث (١٨٢٣ - ١٩١٠) فكان يرى كمعاصريه أن حل المسألة الشرقية يمكن أن يتم من خلال ربطه بحل المسألة اليهودية، وكان يرى أن تهجير يهود شرق أوربا (اليديشيين) إلى فلسطين سيساعد اليهود المنفتحين على الاندماج في وسطهم الأوربي، كما أنهم سيقومون بالوقت نفسه بملء الفراغ الذي سيتشكل بعد تحلل السلطنة العثمانية، وهو بذلك وضع أساسا للصهيونيتين التوطينية والاستيطانية.

أما رجل الصناعة البريطاني إدوارد كازالت (١٨٢٧ - ١٨٨٣) فكان يرى أيضا وجوب ربط المسألة الشرقية بالمسألة اليهودية لحل المسألتين معا، وكان كازلت يرى أن العرب شعب غير حضاري، ولا يمكن لهم أن يكونوا أسياد أنفسهم، كما اقترح على القسطنطينة إقامة سكة حديدية تربط بين سوريا والعراق على أن تخصص الأراضي على جانبي السكة لتوطين اليهود فيها.

أما اللورد أنطوني اشلي كوبر فقد حث الجماعات اليهودية في أوربا على الهجرة إلى فلسطين، وكان يرى أن وجود الإنكليز واليهود ضروريان من أجل تحقق الأمل المسيحي، وهو الذي قال في سنة ١٨٣٩م {إن فلسطين من دون أمة لأمة من دون بلاد}، وهو الذي وقف ضد الدعوات القائلة بضرورة اندماج اليهود في مجتمعاتهم التي نادت بها جماعات التنوير، كما أكد على الدور الرئيسي لليهود في عودة المسيح الثانية، كما أنه أثر على عمه اللورد بالمرستون وزير خارجية بريطانية، وحثه على فتح قنصلية في القدس.

ومن أقوال الشخصيات التاريخية والأدبية الشهيرة، المعادية للشخصية النمطية اليهودية التي كانت سائدة في تلك الفترة، والذين يمكن اعتبارهم من الصهاينة غير اليهود، كما يمكن اعتبارهم أيضا من الشخصيات المعادية للسامية:

البابا كليمانت الثامن {جميع الأوربيين يعانون من الربا الفاحش وعمليات الاحتكار القذرة والغدر بالسكان المسيحيين الذين يعيش اليهود في وسطهم هؤلاء اليهود الذين سببوا

ويسببون الفقر المدقع لكثير من المسيحيين الأبرياء لا سيما العمال والفلاحين، هذه الطبقة المنتجة المهمة، وعلينا أن لا ننسى أن اليهود كانوا وما زالوا ضيوفا سيئين ومخربين في أوربا كلها التي عاشوا فيها، فعلينا أن نحذرهم ونحذر تعاليمهم الأخلاقية الشديدة السوء وتصرفاتهم اللاإنسانية والقذرة في البلدان التي تستضيفهم}.

نابليون بونابرت {لا يمكن لأي إنسان أن يعمل على تحسين صفات اليهود مهما بذل من جهد، ولا يمكن له إقناعهم بالحجج والبراهين، ويتوجب علينا أن نسن لهم قوانين تخصهم وتنحصر فيهم، فمنذ عهد موسى كان اليهود طغاة ظالمين أو مرابين حاقدين. إن موهبة اليهود وذكاءهم يتركزان على أعمال النهب والسلب والاحتيال، وهم يعتقدون حسب تعاليم التلمود أن ربهم يبارك سرقاتهم وجرائمهم وخطاياهم، فيجب علينا أن نحظر على اليهود التعامل بالتجارة وأعمال صياغة الذهب لأنهم يشكلون أحط صنف بشري في هذا المجال، إن اليهود هم جراد وديدان نهمة تفترس فرنسا، يجب أن لا نعتبر اليهود طائفة وإنما شعبا، فاليهود يشكلون شعبا يعيش في قلب الشعوب الأخرى، إنهم يشكلون شعبا قادرا على القيام بأبشع الجرائم فعلينا أن نعتبرهم أجانب وغرباء، وليس هناك حقارة أكبر من حكم اليهود للناس لأنهم أقذر الأجناس البشرية على سطح الأرض}

كما أنه قال بصيغة تصالحية، إصلاحية {كم هو ملح أن ننشط المشاعر الأخلاقية المدنية بين الذين يدينون بالديانة اليهودية في البلاد الخاضعة لطاعتنا، والتي - مع الأسف - قد تموّتت عند كثير منهم من جراء الانحطاط الذي رزخوا تحته لفترة طويلة} وقد قام باستدعاء وجهاء اليهود للعمل على تنوير الجماعات اليهودية.

الكاتب الفرنسي صموئيل ميشيل {إن اليهود منذ أقدم العصور كانوا وما زالوا تلك العلقة الشرهة التي تعيش عالة على جسد كل مجتمع حلت فيه، وهي تعيش على حساب شعبه ومقدراته، وهي تشكل باستمرار المعول الهدام الذي يخرب كل قيمه وأخلاقه ومقدساته}.

الكاتب الفرنسي المسرحي فولتير {اليهود همجيون لأنهم أذلاء في العسر، ووقحون في اليسر، ستجدون في اليهود شعبا همجيا جاهلا عدوا للقيم الإنسانية الرفيعة، وقد عرفوا بالبخل الكريه منذ زمن طويل}.

القيصر غليوم الثاني ملك ألمانيا {يصر اليهود على هدم مفهوم حب الوطن لدى الشعوب، كما يسعون جاهدين لهدم وتزوير كل الشرائع السماوية المقدسة في العالم أجمع}.

فريدريك نيتشه {قريبا سيدعونا القرن العشرون للتفرج على أهم مشهد من فصوله القاتمة ألا وهو القرار الذي سيتخذه اليهود فيما يتعلق بمصيرهم، ومن الواضح جدا أنهم ألقوا الآن بنردهم، واجتازوا النهر إلى الضفة الثانية، وهم يسيرون إلى الأمام ولديهم خيار واحد: إما أن يصبحوا أسياد أوربا وإما أن يفقدوها إلى الأبد، كما خسروا سابقا أرض مصر حين خرجوا منها، وقد يمكن لأوربا أن تقع في أيديهم مستقبلا كالفاكهة الناضجة إذا أمسكوا بخناقها عن طريق الربا جيدا}.

أما الملك بطرس الأول، فيصف اليهود بأنهم {نصابون محتالون ولا يأخذون إذنا من أحد في الاستيطان وممارسة تجارته الخبيثة في الربا الفاحش}.

إمبراطورة روسيا إليزابيت بتروفنا {إن اليهود يكرهون السيد المسيح وتعاليمه المقدسة كرها شديدا، ولذلك فإنني أصدرت أمرا دينيا بأن يغادر اليهود بلادنا فورا رجالا ونساء بغض النظر عن مركزهم وثرواتهم وممتلكاتهم، إني لا أنتظر منهم معروفا، ولا أرجو منهم خيرا لأنهم أعداء السيد المسيح والأعداء الألداء للمسيحيين}.

إمبراطور روسيا نيقولا الأول {يُعَدّ اليهود ألعن وأخبث المخلوقات البشرية في ابتزاز الناس وخداعهم وطرق غشهم في كل شيء، حتى الخبز الذي لم يبذروا حنطته كانوا يتقاضون أجرة حصاده وقبل بذاره، وكانوا أشبه بالعلقة التي تمتص دم الشعب وجهده وتحيله إلى الفناء والهلاك}.

فريدريك ملك بروسيا {لا يوجد خطر أشد فتكا من خطر التجار اليهود المعروفين بجشعهم في جني الأرباح الفاحشة غير الشريفة ولا المشروعة}.

أما سينك فقد وصف اليهود بأنهم {الأمة السيئة الحقيرة التي استطاعت أن تنشر مفاهيمها في العالم كله: أعطى المهزومون قوانين للمنتصرين}

نواة تشكل الصهيونية غير اليهودية الاستعمارية الرأسمالية (في فرنسا):

مع نهاية القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر بدأ اهتمام الإنكليز يتزايد بفلسطين باعتبارها عنصرا في توازن القوى الأوربية، وباعتبارها الطريق الآمن للهند، والتي كانت تشكل أحد المطامع الفرنسية والروسية، وهذا ما جعل الصهيونية المسيحية تلتقي وتتقوى بالصهيونية الاستعمارية، وفي سياق هذا الصراع جاء نابليون أحد أهم المعادين لليهود، والذي قال عنه وايزمان إنه أول الصهيونيين غير اليهود، والذي كان قد أدرك طبيعة اليهودية، وكيفية استغلالها في مخططاته الاستعمارية، ففي حملته على سورية سنة ١٧٩٩م أطلق نداءه الشهير: {إن العناية الإلهية أرسلتني إلى هنا على رأس جيشي هذا، وقد جعلت هذه العناية الإلهية نشر العدل وتحقيقه مطلبي، وتكلفت يا ورثة فلسطين الشرعيين، إن الأمة الفرنسية العظيمة ورائي لتجعل من القدس مقري العام، وبعد قليل تجعل مقري دمشق، وسوف أكون جارا لبلد داود.

يا ورثة فلسطين الشرعيين، إن الأمة الفرنسية التي تنجب الرجال تناديكم الآن لا للعمل على إعادة احتلال وطنكم فحسب ولا لاسترجاع ما فقد منكم، بل لأجل ضمان ومؤازرة هذه الأمة تحفظونها مصونة من جميع الطامعين بكم ولتصبحوا أسياد بلادكم}.

وكان الفرنسيون قد اتفقوا مع الجماعات اليهودية أن يمولوا حملة نابليون، وكان توماس كوربت - الشخصية اليهودية ذات الجنسية الإيرلندية - قد بعث برسالة إلى الفرنسيين يقول فيها {إن اليهود سوف يكونون عنصرا استعماريا ثابت الأركان يحل في آسيا محل الإمبراطورية العثمانية الآخذة بالانحلال، وسوف يقدم لكم هذا العنصر اليهودي أهم الضمانات لبث الفوضى وهدم الدين، وإشعال الأزمات} في المناطق التي سيدخلها الجيش الفرنسي بقيادة نابليون، والذي أطلق وعده فور وصوله إلى الشرق، وكان نابليون يرى أنه من خلال إحلال اليهود في فلسطين، فإن ذلك يضمن له وجود عنصر شعبي موال له، من جهة، ومن جهة ثانية يشكّل هذا الوجود اليهودي حاجزا بين سوريا ومصر، كما أنه يهدد أو يغلق به طرق المواصلات البريطانية نحو الهند.

وكان إرنست لاهاران سكرتير نابليون الثالث سنة ١٨٦٠م قد أكد في كتابه (المسألة الشرقية الجديدة - إمبراطورية مصر والعرب: إعادة تكوين القومية اليهودية) على ضرورة إعادة الدولة اليهودية إلى الحياة ثانية تحت رعاية فرنسية، حيث تشكل منارة أوربا و {طريق جديد ومعبد للحضارة الغربية وأسواق جديدة للصناعة الغربية}، ومن حينها بدأت حمى الدعوات الصهيونية الاستعمارية غير اليهودية بالتصاعد، والتي تدعوا إلى عودة اليهود إلى فلسطين، ولكن الصهيونية غير اليهودية الاستعمارية فقد تبنتها إنجلترا بعد فشل نابليون بونابرت في مخططه الاستعماري في الشرق، هذا إضافة إلى الصهيونية غير اليهودية الإنجليزية ذات الطابع الديني.

obeikandl.com

الصهيونية غير اليهودية
بين
السامية واللاسامية (في إنجلترا)

بعد أن أخذ المذهب البروتستانتي ينتشر كثورة تحررية من سيطرة الكنيسة الكاثوليكية، بدأ خطابه الديني ودعوته لإرجاع اليهود إلى فلسطين يعلو أيضا بدءا بنهاية القرن السادس عشر الميلادي وخاصة في إنجلترا، وفي الوقت نفسه، وكنوع من ردة فعل، بدأ أعداء اليهود الكاثوليك (اللاساميين) يشكلون خطابهم السياسي، والذي يدعوا إلى تشكيل غيتو عالمي لليهود، وفي أي مكان خارج أوربا، وهذا الغيتو العالمي يشكل حلا، وخلاصا لأوربا من شعب مكروه، ومنبوذ من قبل المجتمع الأوربي، وكان فورييه (١٧٧٢ - ١٨٣٧م)، وهو مفكر اشتراكي مهتم بالقضية اليهودية، يرى أن اليهود يمثلون التجارة بكل شرورها، وأنهم يشكلون جماعة قومية غير متميزة وغير متحضرة، ومعادية للحقيقة، وأن اليهود لا انتماء لهم كما هي التجارة، وهم خائنون وجواسيس وجلادون ومجرمون، وينقصهم الإبداع في كل شيء إلا في الأعمال غير الشريفة والهامشية والشرهة، وأنهم يحققون نجاحا ماليا من خلال أعمالهم الطفيلية، والخسيسة، ومن خلال بخلهم وطمعهم الشديدين، وقد طرح فورييه حلين متناقضين للمسألة اليهودية:

الأول يتمثل في عملية دمج قسرية لليهود ضمن مجتمعاتهم.

أما الطرح الثاني فقد اقترحه سنة ١٨٣٥م، وقبل أن تولد الصهيونية اليهودية بأكثر من قرن ونصف، وكان يتمثل في دعوته إلى توطين اليهود في منطقة جنوب سوريا، ودعا إلى إقامة كيان إسرائيلي زراعي، بعد أن يتم تأمين تربة زراعية مناسبة من خلال استجرار المياه إليها بتمويل من روتشلد، وبدعم من أوربا، وقد وجه تلامذة فورييه خطابا يقولون فيه {أيها اليهود! إلى أعالي سيناء، حيث أرسل الإله بالوصايا العشر التي تخرقونها دائما، إلى موسى والإله الذي تركتموه بسبب حبكم الشديد إلى الذهب.. اعبروا البحر الأحمر مرة أخرى، ولتنزلوا إلى الصحراء مرة أخرى، إلى أرض الميعاد التي تنتظركم، الأرض الوحيدة التي تناسبكم، أيها الشعب الشرير الوقح الخائن، اذهبوا إلى هناك}.

وفي تلك الفترة برز محمد علي الذي قلب موازين القوى في الشرق، وهدد بشكل مباشر المشروع الاستعماري الغربي، وكان لذلك الأثر الكبير على تشكيل وتعميق الفكر والمشروع الصهيوني الغربي، لا سيما بعد أن أُجبر محمد علي باشا عام ١٨٤٠م على التوقيع على (معاهدة لندن لتهدئة الشرق)، ويُعدّ المؤرخون أن عام ١٨٤٠ م عام ولادة المسألة الشرقية، كما يُعدّه البعض عام ولادة الحل الصهيوني للمسألة اليهودية.

ومن حينها بدأت حمى الصهيونية غير اليهودية (البروتستانتية، واللاسامية، والاستعمارية) تتصاعد، وتم تأسيس صندوق استكشاف فلسطين سنة ١٨٦٥م برعاية ملكة إنجلترا فكتوريا، وكان المقر الذي يجتمع فيه (مجازيا) الصهاينة غير اليهود، وكان منبرا للتأكيد على أهمية فلسطين، وأهمية إقامة كيان يهودي فيها تحت رعاية العرش البريطاني، وقد تأسست بعد ذلك عدة جمعيات مترادفة، ومتماثلة مع صندوق استكشاف فلسطين في أكثر من مكان في العالم الغربي.

وكان أهم الصهاينة غير اليهود - الإنجيليين - في تلك الفترة هو اللورد أيرل شافتسبري السابع (١٨٠١ - ١٨٨٥م)، والذي كان شديد الاهتمام بعودة اليهود إلى الأرض المقدسة، وكان من الذين رفضوا فكرة الخلاص بدمج اليهود في مجتمعاتهم، وهو الذي قال {إن أي شعب لا بد أن يكون له وطن، الأرض القديمة للشعب القديم}، وقد طور هذه المقولة إلى شعار (وطن من دون شعب لشعب من دون وطن)، والذي حوله الصهاينة اليهود بعد قرن من الزمان إلى (أرض بلا شعب لشعب بلا وطن)، وقد اقترح شافتسبري توظيف اليهود كمزارعين في فلسطين، على أن يكون القنصل البريطاني عرّاب العلاقة بين السلطنة العثمانية وبين اليهود، وهو الذي قال أيضا {إذا رأينا عودتهم في ضوء استعمار فلسطين، فإن هذه الطريقة هي أرخص الطرق وأكثرها أمنا في الوفاء بحاجات هذه المناطق غير المأهولة بالسكان، وهم سيعودون على نفقتهم الخاصة دون أن يعرضوا أحدا - سوى أنفسهم - للخطر}، كما كتب أيضا في مقال له سنة ١٨٧٦م {إن فلسطين بحاجة إلى السكان ورأس المال، وبإمكان اليهود أن يعطوها الشيئين معا، وإنجلترا لها مصلحة في استرجاعهم لأنها ستكون ضربة لإنجلترا إن وُضع منافسوها في سوريا. لكل هذا، يجب أن تحتفظ إنجلترا بسوريا لنفسها كما يجب أن تدافع عن قومية اليهود وتساعدهم حتى يعودوا فيكونوا بمنزلة الخميرة لأرضهم القديمة. إن إنجلترا أكبر قوة تجارية وبحرية في العالم، ولهذا لا بد لها أن تضطلع بدور توطين اليهود في فلسطين.. وهذه ليست تجربة مصطنعة.. إنها الطبيعة.. إنه التاريخ}، وقد تسلّم شافتسبري رئاسة صندوق استكشاف فلسطين، وقد كتب رسالة إلى بالمرستون يقول فيها إن اليهود {غير متحمسين للمشروع الصهيوني، فالأغنياء سيرتابون فيه ويستسلمون لمخاوفهم، أما الفقراء فسيؤخرهم جمع المال في بلاد العالم، وسوف يفضل بعضهم مقعدا في مجلس العموم في بريطانيا على مقعد تحت أشجار العنب والتين في فلسطين. وقد تكون هذه أحاسيس بعض الإسرائيليين الفرنسيين، أما يهود ألمانيا الكفار فيحتمل أن يرفضوا الاقتراح}.

وكان أهم من ناصر مشروع شافتسبري اللورد بالمرستون (١٧٨٤ - ١٨٦٥م) وزير خارجية بريطانيا لتوطين وزرع اليهود في فلسطين كمخلب قط لقمع العرب، وهو الذي كان قد بعث برسالة إلى سفير إنكلترا في استنبول في آب سنة ١٨٤٠م يطلب منه فيها إخبار السلطان العثماني أنه {توجد في هذه الأيام بين اليهود المبعثرين في أوربا فكرة قومية فحواها أن الوقت قد أوشك أن يحل حتى تعود أمتهم إلى فلسطين، وإذا أتيح للشعب اليهودي أن يعود بموافقة وحماية السلطان العثماني فإنه سيشكل حاجزا بوجه أي مشروع شرير قد يقدم عليه محمد علي أو خلفه}.

وبدأ الصهاينة الاستعماريون أو السياسيون الإنجليز (إدوارد متفورد، وجورج غولر، وتشارلز هنري تشرشل) بتأييد دعوات بالمرستون واقترحوا، وسعوا لإقامة دولة يهودية في فلسطين في منتصف القرن التاسع عشر، والذين أسسوا أو افترشوا الوضع السياسي لإنشاء المنظمة الصهيونية اليهودية، في الوقت الذي بدأ يتطور فيه النظام البرجوازي نحو النظام الصناعي، ومن ثم التجاري، فالاستعماري بقيادة إنجلترا التي شكلت أكبر قوة استعمارية في العالم، وكما تم ذكره، كان لظهور الإمبراطورية المصرية الصغيرة بقيادة محمد علي باشا الأثر الكبير في تبلور الفكرة الصهيونية، حيث تم ربط حل المسألة اليهودية التي تفاقمت بعد سنة ١٨٨٢م مع حل المسألة الشرقية، من خلال الوصول إلى فكرة حل المسألة اليهودية بترحيل الجماعات اليهودية (حل المسألة اليهودية)، وتوطينهم في فلسطين كقاعدة استعمارية (ضمن معالجة المسألة الشرقية)، ومن حينها أصبح مصير فلسطين مرتبط بالتطلعات الاستعمارية الغربية، وكانت تروج إنجلترا لمشروعها الاستعماري من خلال إحياء المشروع الصليبي في نهاية الألف الثانية للميلاد الذي لم يتمكن من تحقيق أهدافه في بداية الألف الثانية للميلاد، وقد تمت تورية هذه الحملة تحت أسماء متعددة (استعمار - انتداب - وصاية -..) وقد رأى الكثير من الصهاينة غير اليهود أن المشروع الصهيوني هو شكل من أشكال الصليبية، ولديه من الأسباب والمسوغات ما يجعله أكثر نجاحا من الحملات الصليبية السابقة.

وكان الضابط الإنكليزي تشارلز هنري تشرشل (١٨٠٧ - ١٨٦٩)، وهو الذي شغل منصب القائمقام البريطاني، والذي أصبح فيما بعد قنصل بريطانيا في دمشق، قد ألقى في دمشق خطابا أمام الجماعة اليهودية قال فيه {إن هذه الوديان والسهول الجميلة التي يقطنها الآن العرب الجوالون وبسببهم تعاني من الخراب بعد أن كانت مثالا للوفرة والرخاء وتملأ أرجاءها أغاني بنات صهيون، ستعود لإسرائيل في ساعة قريبة حيث أن اقتراب الحضارة الغربية من هذه الأرض يمثل فجر نهضتها الجديدة. فلتستعد الأمة اليهودية مكانتها بين الشعوب، وليُثبت أحفاد المكابيين أنهم مثل أسلافهم العظماء}، وقد وظّف نفسه مدافعا وحاميا لليهود في دمشق، ولكنه، ولأنه لم يجد أذنا صاغية من يهود سوريا، فقد بدأ بتوجيه خطاباته إلى يهود أوربا، وقد كتب رسالة لليهودي الشهير موسى منتفيوري سنة ١٨٤١م يقول فيها {لا أخفي عنك رغبتي الجامحة في أن أرى قومك يحاولون استعادة وجودهم كشعب، وأرى أن الموضوع ميسور تماما. لكن هناك شرطين ضروريين لذلك أولهما أن يتولى اليهود أنفسهم الموضوع عالميا بالإجماع، وثانيهما أن تساعدهم القوى الأوربية على تحقيق أهدافهم}، ويُعَدّ الصهاينة أن تشرشل أحد الآباء الأوائل للحركة الصهيونية.

أما ميتفورد فقد دعا سنة ١٨٤٥ إلى {إعادة توطين الأمة اليهودية في فلسطين كدولة تتمتع بالحماية تحت وصاية بريطانيا.. فإقامة دولة يهودية ستضع إدارة مواصلاتنا البحرية في أيدينا بالكامل، وستوفر لنا في المشرق مركز سيطرة نستطيع أن نوقف منه عملية التعدي، وأن نردع الأعداء السافرين ونصد تقدمهم عند الضرورة}.

أما جورج غولر (١٧٩٦ - ١٨٦٩م) الذي كان حاكما عسكريا لجنوب أستراليا (١٨٣٨ - ١٨٦٩) فقد قال {إن بإمكان دولة أجنبية أن تعرض التجارة البريطانية للخطر

بسرعة، وينبغي أن تعمل بريطانيا على تجديد سوريا بواسطة الشعب الوحيد الذي يمكن توظيف طاقاته بصورة دائمة على نطاق واسع: أبناء الأرض الحقيقيين.. أبناء إسرائيل}، كما كان يرى أن فلسطين هي ملك لرب إسرائيل، ولشعبه المختار أبناء الأرض الحقيقيين، وكان يعتقد أن إعادة اليهود إليها هو الحل الأمثل لمشكلة عدم استقرار الشرق الإسلامي، والحل الأمثل لحل المشكلة اليهودية، وكان جورج غولر قد سافر مع موسى منتفيوري إلى فلسطين سنة ١٨٤٩م، وشارك في التشجيع على بناء مستوطنات يهودية زراعية في محيط مدينة يافا.

أما أكثر الصهاينة غير اليهود نشاطا في تلك الفترة فكان لورنس أوليفنت (١٨٢٩ - ١٨٨٨م) عضو البرلمان ووزير الخارجية والكاتب الإنجليزي، وصديق شافتسبري، والذي كان قد اقترح إقامة دولة يهودية في شرقي الأردن، كما أنه عمل كهمزة وصل بين الصهيونية غير اليهودية، والصهيونية اليهودية، وكان يرى أن من المتوجب دعم الوجود العثماني ليبقى سدا أمام التوسع الروسي، ويتمثل هذا الدعم بإدخال (وتوطين) اليهود بأموالهم وفكرهم الاقتصادي في فلسطين، وفي الضفة الشرقية أيضا (أرض جلعاد)، {على إنكلترا أن تعمل على تطوير موارد فلسطين الزراعية عن طريق إعادة توطين الجنس الذي تملّكها أولا قبل ٣٠٠٠ عام}، ويمكن أن يتم ذلك عمليا من خلال إنشاء شركة استيطانية برعاية بريطانيا، بحيث يكون مقرها في استنبول، وفي معرض بحثه لهذا الحل قسّم العرب الفلسطينيين إلى قسمين: بدو، وفلاحين، واقترح طرد البدو، ووضع الفلاحين في معسكرات مثل معسكرات الهنود الحمر في كندا لاستغلالهم كمصدر للعمالة الرخيصة، وقد ساهم أليفانت في تهجير سبعين يهوديا إلى فلسطين، كما أنه سكن في النهاية في فلسطين ومات فيها، وبذلك فقد ساهم بتشكيل الصهيونية العملية، وقد اعتبره بعض أعضاء جماعة البيلو (قورش الثاني)، والبعض اعتبره المسيح.

كما كان من الصهاينة غير اليهود في تلك الفترة الروائية الإنكليزية جورج إليوت، والصحافي هربرت سايد بوثام الذي كتب {ليس لفلسطين وجود قومي أو جغرافي مستقل إلا ما كان لها من تاريخ اليهود القديم، إنها تُعد وطنا بالنسبة لليهود فقط}.

ومن الذين عملوا أيضا كهمزة وصل بين الصهيونيتين غير اليهودية واليهودية وليم هشلر (١٨٤٥ - ١٩٣١م) والذي كان قد كتب سنة ١٨٩٤م كتاب (إعادة اليهود إلى فلسطين)، وقد تم التعارف بينه وبين هرتزل بعد أن نشر الأخير كتابه (الدولة اليهودية)، وقد ساعد هرتزل على تسويق فكرته عند النخبة الحاكمة في أوربا، وبالأخص في ألمانيا، ولكنه فشل في مسعاه بسبب التحالف القوي بين العثمانيين والألمان، وكان هشلر قد حضر المؤتمر الصهيوني الأول سنة ١٨٩٧، وكان بول هاوبت البرفسور في جامعة جون هوبكنز قد اقترح سنة ١٨٩٦م، وقبل أن يعقد المؤتمر الصهيوني الأول، خطة لتوجيه اليهود القادمين من شرق أوربا نحو الهلال الخصيب.

وفي تلك الفترة ولدت الصهيونية اليهودية، وعقدت أول مؤتمر لها في بازل سنة ١٨٩٧م، وبينما كانت الصهيونية غير اليهودية هي الواجهة التي كانت تسوّق لإقامة دولة يهودية في فلسطين، أصبحت الواجهة هي الصهيونية اليهودية مدعومة بالصهيونية غير

اليهودية التي انسحبت لتقبع في الكواليس وتنظم وتعمل كوسيط بين الصهيونية، وبين العقلية الاستعمارية الغربية، وكان أكثر هؤلاء الصهاينة غير اليهود من الإنجليز يتبعون المذهب البروتستانتي، وقد برز منهم في تلك الفترة جوزيف تشامبرلين (١٨٣٦ - ١٩١٤م) وزير المستعمرات البريطاني الذي كان يرى أن {اليهود مجموعة من المستعمرين الأوربيين الجاهزين لاستيطان وتطوير وامتلاك أرض خالية تحت الوصاية البريطانية}، وهو الذي قدّم لهرتزل منطقة العريش لاستيطانها، لا سيما وأن إنكلترا كانت قد بدأت تضيق ذرعا بالأعداد المتزايدة من المهاجرين، وبخاصة منهم اليهود القادمين من أوربا الشرقية نحو أوربا الغربية وبالذات نحو بريطانيا (المسألة اليهودية)، وقد اقترح هرتزل حلا لتلك المشكلة هو تحويل هجرة الجماعات اليهودية من أوربا الشرقية نحو وطن يهودي يتم إنشاؤه في فلسطين، وقد تبنى هذا الطرح كل من تشامبرلين وبلفور.

وبعد أن رفض الصهاينة اليهود طرح تشامبرلين بالاستيطان اليهودي في منطقة العريش بسبب الإشكاليات والصعوبات الإروائية المائية، عاد وطرح تشامبرلين أوغندة كمنطقة استيطانية جديدة لليهود، ولكن تم رفض هذا الطرح في المؤتمر الصهيوني السادس سنة ١٩٠٣م، الأمر الذي حاصر الصهاينة السياسيين غير اليهود بقبول تبني فلسطين كمنطقة لتوطين اليهود فيها، وهو الطرح الصهيوني اليهودي، والذي كان يسوّق لذلك الطرح كل من حاييم وايزمان، وناحوم سوكولوف واللذان كانا قد طرحا المشروع على أساس عقد شراكة بين الجماعات اليهودية، وبين الأطماع الاستعمارية الاستراتيجية الإنكليزية (العقد الصامت)، وكان هرتزل قد عمل - قبل موته سنة ١٩٠٤م - كعراب وصاغ بنود (العقد الصامت) بين الرأسمالية والإمبريالية الغربية، والحركة الصهيونية، والذي ينص على قيام الصهيونية بتخليص أوربا من الفائض السكاني اليهودي الطفيلي، وتوظيف الصفة الطفيلية في إضعاف البنية الاقتصادية للمنطقة العربية، وبالمقابل تقوم الدول الراعية بتوطين اليهود في فلسطين، وتشكيل دولة خاصة بهم هناك، وحمايتها وإيجاد مسوغات استمرارها، على أن تقوم هذه الدولة بتقديم الخدمات الاستعمارية للدول الغربية، وعلى رأسها أن تشكل الدولة اليهودية قاعدة عسكرية إمبريالية في المنطقة.

في النهاية قامت بريطانيا في عهد رئيس الحكومة الصهيوني الديني السياسي غير اليهودي لويد جورج، وبالتعاون والتنسيق مع الولايات المتحدة الأمريكية بإعلان وعد بلفور يوم ٢- ١١- ١٩١٧ والذي جاء فيه {إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه الإخلال بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين، ولا بالحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلاد الأخرى}.

ويصنف بلفور من الصهاينة غير اليهود السياسيين اللاساميين على الرغم من أنه يعود إلى المذهب البروتستانتي، حيث كان يُعَدّ اليهود غرباء عن الحضارة الغربية، ويجب التخلص منهم لأنهم طفيليات هدامة للنسيج المدني، وقد ساهم في استصدار قرار سنة ١٩٠٥م، وهو القرار الذي يحدِّ من الهجرة اليهودية إلى إنكلترا، وهو الذي قال بعد إطلاق وعده الشهير الذي يُعَدّ توقيعاً على (العقد الصامت) بين

العالم الاستعماري الإمبريالي الغربي، وبين الصهيونية العالمية {إن الدول الأربع العظمى ملتزمة بالصهيونية. والصهيونية سواء أكانت على حق أم خطأ وسواء أكانت سيئة أم رديئة هي متجذرة في تقاليد منذ الماضي السحيق وفي الحاجات الحالية وفي آمال المستقبل لمضمون أعمق بكثير من الرغبات والتحاملات المبغضة لدى ٧٠٠ ألف عربي يسكنون الآن في الأرض القديمة}، وهذا الخطاب يظهر بطريقة مضمرة عدوانية بلفور اللاسامية على اليهود (الصهيونية) من جهة، وعلى العرب من جهة أخرى، أما خطابه الذي يبرز فيه صهيونيته الاستعمارية النفعية، فقد أتى على هامش إعلان وعده الشهير، والذي يقول فيه {لا يهمنا النظام الذي نضعه ولا القرار الذي نتخذه بغية الاحتفاظ ببترول الشرق الأوسط، فمن الأمور الأساسية أن يبقى هذا البترول في متناول يدنا}، ولكن بلفور، وبعد مدة قصيرة استشعر، وأدرك، البعد اللاأخلاقي في وعده الشهير، فكتب سنة ١٩١٩ إلى لويد جورج يقول {إن نقطة الضعف في موقفنا هي أننا فيما يتعلق بفلسطين قد رفضنا مبدأ وحق تقرير المصير. فلو استشرنا السكان الحاليين فإنهم كانوا سيرفضون حتما الاستيطان اليهودي}.

أما لويد جورج رئيس الحكومة في تلك الفترة، فقد كان يدرك خطورة اليهود، واليهودية، والصهيونية التي كانت آخذة بالتصاعد في أوربا، ولذا كان لا بد من المساهمة في إيجاد مخرج لحل تلك المعضلة المحتملة {لا تخطئوا، إنكم إن اعتبرتم مشكلة اليهود مشكلة عابرة لا يلبث غبارها ووباؤها أن ينقشع حين يتحسن الطقس، إن هذا الوباء داهمكم ليثبت جذوره في أرضكم، ففي فرنسا يسمّون البلشفية، وهي جميعها تسميات لمسمّى واحد هي اليهودية وكلمة واحدة تعارضها هي نظام الملكية العامة الشاملة التي تحرض إنكلترا على التمسك بها}، وهذا التصور يمثل الرؤية التي جعلت من إنكلترا على وجه التحديد، والعالم الأوربي على وجه العموم يتبنون فكرة التخلص من الجماعات اليهودية من أوربا، وتوطينهم في أي مكان خارج القارة الأوربية.

ومن بين الصهاينة غير اليهود الإنكليز الذين كان لهم شأن في تلك الفترة التي كانت قد شهدت ولادة الصهيونية اليهودية، ومن ثم استصدار وعد بلفور، هو سايد بوثام الذي قال {إن الحجة من أجل الصهيونية قوية جدا بالنسبة لأمننا حتى أن الواجب يدعونا أن نوجدها لو لم تكن موجودة بيننا}.

وأيضا السير مارك سايكس الشهير، ذو النفوذ الواسع في الحكومة البريطانية، وهو الذي شارك الفرنسي بيكو في وضع الاتفاقية السرية الاستعمارية الشهيرة سنة ١٩١٦م، والتي سميت اتفاقية سايكس بيكو، وهو على خلاف أكثر الصهاينة غير اليهود الذين كانوا بروتستانتيين كان كاثوليكيا، وكان المهندس الرئيسي لوعد بلفور.

ومنهم أيضا اللورد ملنر الذي قال {إذا ذهب العرب بعيدا في ادعائهم أن فلسطين واحدة من بلدانهم تماما كما هي بلاد ما بين النهرين أو الجزيرة العربية، فإنني أعتقد أنهم يتحدّون الحقائق والتاريخ والمبادئ والروابط ذات الطبيعة المقدسة.. إن مستقبل فلسطين لا يمكن أن تقرره الانفعالات المؤقتة ومشاعر غالبية عرب الوقت الحاضر}.

وكان الوزير البريطاني إيميري قد كتب في مذكراته {نحن نرى، من وجهة النظر البريطانية الخالصة أن إقامة شعب يهودي ناجح في فلسطين، يدين بوجوده، وفرصته

بالتطور إلى السياسة البريطانية كسب ثمين لضمان الدفاع عن قناة السويس من الشمال، ولأداء دور المحطة للطرق الجوية المقبلة مع الشرق}.

أما اللورد كيتشنر فقد دعا حكومته إلى أن {تجعل من فلسطين دعامة لموقع بريطانيا في مصر، إضافة إلى كونها معبرا بريا إلى الشرق}.

وكان إيان سمطس (١٨٧٠ - ١٩٧٠م) من جنوب أفريقيا، قد ساهم في استصدار وعد بلفور، وساعد في تشكيل الفيلق اليهودي إبان الحرب العالمية الأولى، وكان قد قال لجابوتنسكي سنة ١٩١٧م {إن أحسن فكرة سمعتها في حياتي هي أن على اليهود أن يحاربوا من أجل أرض إسرائيل}.

وممن شارك أيضا في الجهود الدبلوماسية لاستصدار وعد بلفور السياسي البريطاني جوسيا ودجوود (١٨٧٢ - ١٩٤٣م)، وكان قد اقترح إقامة دولة يهودية على ضفتي نهر الأردن على أن تكون عضوا في الكومنولث البريطاني، وكان قد أكد أن إنكلترا ستكون على خطأ إذا ما تخلت عن الصهيونية من أجل إرضاء العرب.

وفي النهاية جاء ونستون تشرشل الذي كتب في مذكراته {وإذا أتيح لنا في حياتنا - وهو ما سيقع حتما - أن نشهد مولد دولة يهودية، لا في فلسطين وحدها بل على ضفتي الأردن معا، تقوم تحت حماية التاج البريطاني، وتضم نحوا من ثلاثة ملايين أو أربعة ملايين من اليهود، فإننا سنشهد وقوع حادث يتفق تمام الاتفاق مع المصالح الحقيقية البريطانية}، وأضاف في موقع آخر من مذكراته، متلاعبا بكثير من المفاهيم {كانت مشكلة فلسطين من أعقد المشكلات التي واجهتها بريطانيا في هذه الأرجاء. ولقد كنت منذ وعد بلفور في عام ١٩١٧م من أخلص أنصار القضية الصهيونية ومؤيديها. ولم أشعر قط أن البلاد العربية قد جنت منا إلا العدل في معاملتها، فالعرب مدينون لبريطانيا، وبريطانيا وحدها، في وجودهم كدول. فنحن خلقنا هذه الدول، والأموال البريطانية والمستشارون البريطانيون دفعت ودفعوا بها سريعا في طريق التقدم. وكانت الأسلحة البريطانية هي التي تتولى حمايتهم... وهناك شيء واضح، فالشرف والحكمة يتطلبان بقاء دولة إسرائيل والحفاظ عليها. والسماح لهذا الشعب أن يأتي إلى المنطقة بإسهام لا يقدر بثمن من المعرفة العلمية، والعمل، والإنتاج. ومن الواجب إعطاؤه هذه الفرصة لمصلحة الشرق الأوسط كله}.

أما آرثر روبين فقد قال سنة ١٩١٩م، بتأثير توراتي {في الشرق تفرض وجهة النظر التاريخية ضم كل من مؤآب وعمون القديمتين، واللتين كانتا في ما مضى جزءا من الدولة اليهودية}، وأضاف أيضا {إنه ليس من المتوقع أن يتصرف العرب خلافا لتصرف أي شعب في التاريخ: التخلي عن ملكيتهم لبلدهم، والاعتراف بأفضلية الحق الديني والتاريخي، من خلال تقبل ديانة القادمين لأخذه منهم}.

وجاءت الطفرة النازية الأوربية لتعزز الصهيونية اليهودية إلى أبعد الدرجات، والتي كان اليهود قد أداروا ظهورهم لها، ولكن النازية جعلت اليهود في العالم الغربي المهددين بالإبادة أن يتطلعوا، وأن يلتفوا حول الصهيونية التي رأوا فيها المسيح القادم لإنقاذهم من الهولوكوست النازي، وقد تعاونت الصهيونية اليهودية والنازية الألمانية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في هذا المسعى، فكلاهما كان له مصلحة في هجرة اليهود إلى فلسطين، حيث تتخلص النازية من (النير اليهودي)، والصهيونية تكسب

قوى بشرية لتشكيل الدولة الصهيونية من خلال إحلالهم بدل الشعب العربي في فلسطين، وقد جاء في قوانين نورمبورغ سنة ١٩٣٥: {لو كان لليهود دولة خاصة بهم تضمهم جميعا في وطن واحد لأمكن اعتبار القضية اليهودية محلولة حتى بالنسبة لليهود أنفسهم. لقد كان الصهيونيون المتحمسون من كل الشعوب أقل الناس اعتراضا على الأفكار الأساسية لقوانين نورمبرغ لأنهم كانوا يدركون أن هذه القوانين هي الحل الوحيد الصحيح للشعب اليهودي}، وقد طلب وايزمان من ماينرتزهاجن أن يتفق مع النازيين لترحيل بعض اليهود إلى فلسطين، والتي كانت - أي فلسطين - بالنسبة إليه أهم من اليهود أنفسهم حسب رأي ماينرتزهاجن.

obeikandl.com

الولايات المتحدة الأمريكية
بين
نظرتها الذاتية العاطفية، وعقائدها الدينية، وأطماعها الإمبريالية

لقد نشأت الصهيونية غير اليهودية (صهيونية الأغيار) في أوربا البروتستانتية على وجه التحديد، في الوقت الذي كانت فيه أمريكا لم تسمع بعد، ولم تعانِ أيضا بشكل واضح من المشكلة اليهودية إلا بعد أن بدأت الهجرة اليهودية الجماعية المكثفة في أعقاب الاضطهادات التي تعرضت لها الجماعات اليهودية في روسيا القيصرية على أثر اغتيال القيصر الكسندر الثاني سنة ١٨٨١م، وهي المرحلة التي يمكن القول أنها التي أدّت إلى بدء تشكل الصهيونية اليهودية في أوربا، وكان القادة الأمريكان في تلك الفترة، يرون اليهودية من خلال العيون التي كانت ترى بها الدول الأوربية في مرحلتها القومية (اللاسامية؟)، وقد تأثر المسيحيون البروتستانتيون الأمريكيين بوصف مارتن لوثر كنغ لليهود {إنهم قتلة لم تشرق الشمس يوما على شعب أكثر دموية وحقدا من اليهود} {اعلموا يا أعزائي المسيحيين أنه بعد الشيطان لا يوجد قطعا عدو أكثر شراسة وعنادا وأشد فتكا على المسيحية من يهودي حقيقي مصمم على الاعتزاز بيهوديته.. يتوجب عليكم طردهم طرد الكلاب المسعورة من بلادكم، إنهم يشكلون العدو العام الذي يوغل في شتم سيدنا المسيح وينعتونه بابن الزنا وابن المومس طعنا في سيدتنا المقدسة مريم العذراء}.

وكان الرئيس جورج واشنطن (١٧٣٢ - ١٧٩٩م) قد قال عن اليهود {إنهم يعملون بشكل فعال ضدنا أكثر من جيوش العدو. فهم أكثر خطورة مائة مرة على حريتنا.. وهم السبب الرئيسي في انشغالنا.. إن على الدول أن تنوح أو تحزن منذ فترة طويلة لأنهم لم يقوموا باصطياد هؤلاء القوم على أنهم الطاعون أو حشرات المجتمع.. فهم أعظم الأعداء لنا ولسعادة أمريكا}.

وهو يتطابق مع خطاب الرئيس الأمريكي فرانكلين في المؤتمر الذي عقد لإعلان الدستور الأمريكي سنة ١٧٨٩م {حيثما استقر اليهود فإنهم يوهنون من عزيمة الشعب، ويزعزعون الخلق التجاري الشريف. إنهم لا يندمجون بالشعب، لقد كونوا حكومة داخل الحكومة وحينما، يجدون معارضة من أحد فإنهم يعملون على خنق الأمة ماليا.. إذا لم يستثن اليهود من الهجرة بموجب الدستور ففي أقل من ١٠٠ سنة سوف يتدفقون على هذه البلاد بأعداد ضخمة تجعلهم يحكموننا ويدمروننا ويغيرون شكل الحكومة التي ضحينا وبذلنا لإقامتها دماءنا وحياتنا الفردية إذا لم يستثن اليهود من الهجرة فإنه لن يمضي أكثر من ٢٠٠ سنة ليصبح أبناؤنا عمالا في الحقول لتأمين الغذاء لليهود الذين يجلسون في بيوتهم المالية مرفهين يفركون أيديهم غبطة.. النمر لا يستطيع تغيير لونه. اليهود خطر على هذه البلاد}.

وهذا التوجه المعادي لليهودية لم يكن بشكل عام الخطاب، أو التصور الشائع في المجتمع والسياسة الأمريكية، وكان أول رئيس أمريكي دعا إلى عودة اليهود إلى فلسطين هو جون آدمز (١٧٦٧ - ١٨٤٨م) والذي قال سنة ١٨١٨م {أتمنى أن أرى ثانية أمة يهودية مستقلة في يهودا}.

وباستثناء صهيونية فرانكلين اللاسامية، فقد كانت الصهيونية غير اليهودية الأمريكية بأغلبيتها تعود، أو تندرج تحت الصهيونية البروتستانتية، وقد كانت إضافة إلى ذلك ذات بعد عاطفي من خلال تماثلهما على أنهما مجتمعان استيطانيان إحلاليان، فقد كان الأمريكان البروتستانتيون يُعَدّون أنفسهم الجماعات العبرية، وأن أمريكا هي كنعان الجديدة، أما فرعون مصر فكان يمثل الملك جيمس الأول الذي فر الإنجليز على عهده، وأن الكنعانيين هم الهنود الحمر، وقد أطلق المستوطنون الأمريكان منذ بداية الاستيطان على مستعمراتهم، وعلى أسماء أولادهم أسماء عبرية، كما أن جيفرسون كان قد اقترح بأن «يمثل رمز الولايات المتحدة الأمريكية: أبناء إسرائيل تقودهم نهارا غيمة وليلا عمودا من نار، وليس النسر»، بل وقد اقترح البعض أن تكون اللغة الأمريكية الرسمية هي اللغة اليهودية بدل الإنكليزية.

وبذلك كانت البروتستانتية الأمريكية أشد ميلا لليهود من البروتستانتية الإنجليزية بسبب التأثير العاطفي الناتج عن التماثل ما بين القبائل العبرية الإسرائيلية، والجماعات الأمريكية الاستيطانية، فالرجل الأبيض قام بالاستيطان في الأرض المشاع لقارة واسعة الحدود يمكن لها أن تستوعب المزيد من السكان، وبذلك حقق أو أسس أسبقية تاريخية في امتلاك الأرض التي ادعى أنه استولى عليها عذراء، ولم تكن مأهولة بالسكان، وهي تشابه الذريعة التي قدمتها التوراة في تأسيس الأسبقية التاريخية في فلسطين في القرن الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد، حيث أدعى المؤرخ التوراتي أن القبائل العبرية هي أول من شكّل كيان سياسي عسكري اعتباري في فلسطين، وبذلك فإن دفاع العالم الغربي عن ادعاء اليهود بأرض فلسطين، هو دفاع مستبطن عن ادعائه باستيطان الرجل الأبيض في أرض الرجل الأحمر، يقول وليم فوكسويل {وقد يحق لمعظم الأمم المعاصرة ولكن لا يحق لنا نحن الأمريكيين - على الرغم من من إنسانيتنا الصادقة - أن نحكم على الإسرائيليين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ما دمنا قد قمنا عن عمد أو عن غير عمد بإبادة آلاف مؤلفة من الهنود في كل زاوية من مساحة أرضنا الشاسعة ثم عزلنا من بقي منهم في معسكرات خاصة}.

أما البعد الديني المسيحي البروتستانتي في تشكيل الصهيونية المسيحية فكان يتأتى من معتقد العصر الألفي السعيد ومجيء المسيح المنتظر، والذي كان له دور مهم في الحياة الدينية الأمريكية، واستمر هذا الأمر حتى يومنا هذا، متمثلا بطوائف المورمون، والسبتيين، وشهود يهوه، وقد خطب البرت بيفريدج ممثل ولاية إنديانا في مجلس الشيوخ بطريقة توراتية يهودية قائلا {إن الله لم يهيئ خلال ألف عام الشعوب التتونية والشعوب الناطقة بالإنكليزية لكي تتأمل نفسها بكسل ودون طائل. لقد جعل منا أساتذة تنظيم العالم، كي نتمكن من نشر النظام حيث تسيطر الفوضى، وجعلنا جديرين بالحكم لكي نتمكن من إدارة الشعوب البربرية والهرمة. ومن دون هذه القوة ستعم العالم ثانية البربرية والظلام، وقد اختار الله الشعب الأمريكي دون سائر الأجناس كشعب مختار لكي يقود العالم أخيرا إلى تجديد ذاته}.

أما رايت، وهو كاتب يمثل الرأي السائد في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد بنى على خطاب البرت بيفريدج في مرحلة متأخرة خطابه الذي يقول فيه {إلا أن شعوبا أخرى كانت لها أحداث في خلفيتها ليست بعيدة عن ذلك، فنحن في الولايات المتحدة الأمريكية لدينا آباؤنا المؤسسون و (خروجنا) من الاضطهاد الأوربي، وعهدنا المتمثل في الدستور ومرسوم الحقوق، وفتحنا لأمريكا، وسلسلة من الرجال العظماء الذين كانوا آباء بلادنا ابتداء من جورج واشنطن طبعا، وبمعنى آخر إن الحدث الكتابي بوصفه حدثا تاريخيا ليس مثيرا كثيرا للعاطفة من حيث فرادته}.

ومن الصهاينة غير اليهود، الذين برزوا في تلك الفترة، وارد كريسون (١٧٩٨ - ١٨٦٠) وهو مواطن أمريكي من أتباع طائفة الكويكر، ثم أصبح من المارمون، ثم اعتنق اليهودية، بعد أن اعتنق أكثر من معتقد أو طائفة بروتستانتية، استوطن في فلسطين سنة ١٨٥١م، وحاول تأسيس مستوطنة فيها بمساعدة موسى منتفيوري، وكان يرى أن الاستيطان اليهودي في فلسطين يجب أن يكون استيطانا زراعيا مسلحا قادرا على الدفاع الذاتي.

وفي هذا السياق قدّم القنصل الأمريكي وردر كريسون في عام ١٨٤٨م دعما بالمشاركة مع جمعية مسيحية إنكليزية لقيام مستوطنة يهودية.

أما أهم وأشهر الصهاينة غير اليهود البروتستانتيين فكان وليام بلاكستون (١٨٤١ - ١٩٣٥م)، وهو صاحب الكتاب الشهير (عيسى قادم)، والذي كان قد قدم عريضة استرحام سنة ١٨٩١م للرئيس الأمريكي هاريسون على أثر المذابح الروسية لليهود، وقد وقّع على عريضة الاسترحام ٤١٣ شخصا من أهم الشخصيات الأمريكية، والتي يقول فيها {لماذا لا نعيد فلسطين لهم؟ إنها وطنهم حسب توزيع الله للأمم، وهي ملكهم الذي لا يمكن تحويله لغيرهم والذي طردوا منه عنوة}، وقد حث فيها الرئيس الأمريكي كي يتوسط عند الدول الأوربية والدولة العثمانية لعقد مؤتمر دولي لمناقشة حق اليهود في فلسطين، كما كان قد أرسل سنة ١٩١٦م برسالة مماثلة إلى الرئيس ويلسون، وفي مؤتمر اتحاد الصهاينة الأمريكيين سنة ١٩١٨م، والذي حضره بلاكستون وأعلن فيه أن بلاكستون هو (أبو الصهيونية)، وكان شارل رسل الذي ساهم في تشكيل وانتشار جماعة شهود يهوه، قد تنبأ أثناء زيارته إلى القدس سنة ١٩١٠م بأن اليهود سيعودون عاجلا إلى أرض الميعاد.

ومن الصهاينة غير اليهود إدوين شارمن دالس القنصل الأمريكي في القدس، وهو الذي كتب في سنة ١٨٩٨م {إن الأرض بالانتظار، والشعب على استعداد للمجيء سيأتي فور أن تتأمن الحماية للحياة والممتلكات.. يجب أن نقبل بذلك، وإلا فإن الرؤى العديدة التي تأكدت بإيجابية يجب أن تعد عديمة الجدوى}.

وكان أكثر الصهاينة الأمريكان غير اليهود يرون أن اليهود هم أصحاب، أو هم مؤسسو الحضارة الغربية، وأن عليهم أيضا أن ينشروا الحضارة الغربية في العالم الثالث، يقول السناتور واغنر سنة ١٩٤١م {إننا نعلن أن فلسطين حصن مهم على جبهة العالم الديمقراطي، وأن الوطن القومي اليهودي في فلسطين سيكون جزءا مهما وأساسيا من النظام العالمي الذي يجب أن يعقب النصر}.

وفي نفس العام قال أستاذ علم الأخلاق رينهولد نيبور {ليس هناك في الواقع أي حل لأي مشكلة سياسية. إن كون العرب يملكون منطقة واسعة في الشرق الأوسط وكون اليهود لا يملكون مكانا آخر يذهبون إليه يبرهن على العدل النسبي لمطالبهم وقضيتهم، ومن الواجب التضحية بسيادة العرب على جزء من الأرض المتنازع عليها من أجل إقامة وطن قومي يهودي عالمي}.

وقد شكلت الصهيونية غير اليهودية في أمريكا على وجه الخصوص، وفي العالم البروتستانتي على وجه العموم - لا سيما بعد وعد بلفور - ما يدعى بالصهيونية التوطينية، والتي تضم أيضا عناصر يهودية اندماجية رفضت العودة إلى الأرض المقدسة، وكان دور هذه الصهيونية هو تقديم الدعم المادي والمعنوي والسياسي والإعلامي للصهيونية الاستيطانية، للاستيلاء على الأرض العربية، وتهويد الحياة العامة في فلسطين.

أما الرئيس الأمريكي البروتستانتي ولسون (١٩١٣ - ١٩٢١م) فقد كان يؤمن بالأسطورة الصهيونية، والذي كان وزير خارجيته لانستغ قد طلب منه التمهل في إقراره لوعد بلفور علنا (وهو الذي كان قد ساهم في وضع الصيغة النهائية لهذا الوعد) لأن ذلك، حسب رأي لانستغ، يتعارض مع السياسة العامة للولايات المتحدة، وعلى الرغم من ذلك فقد اعترف الرئيس الأمريكي ولسون بوعد بلفور، وصادقت الحكومة الأمريكية عليه سنة ١٩٢٢م، وكان هذا الرئيس الأمريكي هو أول رئيس يظهر صهيونيته، وهو الذي قال إن {من واجبه العمل والمساعدة على إعادة الأرض المقدسة لأهلها}، وفي الوقت الذي بدأت فيه الولايات المتحدة الأمريكية تسحب البساط من تحت لندن كمركز للإمبريالية العالمية، والذي انتهى بعيد الحرب العالمية الثانية بأن أصبحت واشنطن هي مركز الإمبريالية العالمية دون منافس، والذي تزامن مع نقل النشاط الصهيوني اليهودي من لندن إلى واشنطن، كما أن الأمريكان يُعَدّون سنة ١٨٩٧م هي السنة التي بدأت فيها الولايات المتحدة مرحلتها الأمريكية الإمبريالية، وهي السنة نفسها التي عقدت فيه الصهيونية مؤتمرها الأول، وكان الرئيس ولسون هو الذي أسس منظمة البعثة العبرية من أجل إسرائيل، وهي التي تحولت إلى الزمالة اليسوعية الأمريكية، وهو الذي أدخل الولايات المتحدة كشريك منافس مع بريطانيا في تبني المشروع الصهيوني اليهودي في فلسطين، على الرغم من أن الأغلبية اليهودية الأمريكية كانت تعارض الصهيونية (اليهود غير الصهاينة)، وتتبنى فكرة الاندماج في المجتمع الأمريكي.

أما الرئيس هاردنج فقد قال سنة ١٩٢٢م {يسعدني أن أعبر عن موافقتي وتعاطفي القلبي مع جهود إنشاء صندوق فلسطين من أجل إعادة فلسطين وطنا قوميا للشعب اليهودي}، وقد اتخذ الكونغرس الأمريكي، ومجلس النواب في نفس السنة قرارا يؤيد، ويدعم إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وقد تابع الرؤساء الأمريكيون اللاحقون الجمهوريون دعمهم للصهيونية، وبقي اليهود الصهاينة الأمريكان حتى سنة ١٩٤٣م أقل من خمسة بالمائة من يهود الولايات المتحدة الأمريكية.

والتغير المهم الذي جرى في العلاقة الصهيونية الأمريكية كان في عهد الرئاسة الثانية لروزفلت، وتحديدا بعد صدور الكتاب البريطاني الأبيض الذي قيد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، فقد قررت الصهيونية نقل مركز ثقلها من إنكلترا نحو الولايات المتحدة

الأمريكية، ومن حينها بدأ الجدل بين المنظمة الصهيونية وبريطانيا، والتي كانت قد بدأت تأخذ موقفا أقل تطرفا نحو تبني الصهيونية من أجل كسب ود العرب، وقد أكد على ذلك بن غوريون في كلمته إلى مؤتمر بلتيمور سنة ١٩٤٢ في نيويورك {إن اليهود لم يعد باستطاعتهم الاعتماد على الإدارة البريطانية في تسهيل إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين}.

ومع أن روزفلت ينتمي إلى الكنيسة الأسقفية التي لا تعترف بالأسطورة الصهيونية، ولكن أصدقاءه اليهود استعاضوا عن ذلك بإقناعه بتبني الصهيونية، لا سيما وأن اللوبي الصهيوني كان قد بدأ يمارس ألعابه الانتخابية، وعلى الرغم من أن روزفلت أعيد انتخابه بعد وعوده بدعم الصهيونية، لا سيما حول موضوع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، إلا أنه لم يقدم شيئا حقيقيا للصهيونية على أرض الواقع، ولم يف بوعوده لها.

وقد تولى بعده ترومان (١٩٤٥ - ١٩٤٩م)، والذي أسس للعلاقة والمعادلة الأمريكية التي ما زالت قائمة حتى هذا اليوم، وكان يمثل الصهيونية غير اليهودية، والتي كانت صهيونيته ناتجة، حسب رأي الباحثين، عن أكثر من أس، أولها وأهمها ضغط اللوبي الصهيوني على ترومان، وثانيها رؤية ترومان الإنسانية لليهودي الذي تعرض لأقسى أنواع الاضطهاد في تلك المرحلة على يد النازيين، إضافة إلى خلفية ترومان الدينية المعمدانية والتي ترتكز على عودة اليهود إلى الأرض المقدسة في فلسطين، وهو أيضا كان يرى أن هناك تطابقا بين تاريخ استيطان الرجل الأبيض في أمريكا، وبين تاريخ استيطان العبرانيين في فلسطين {إن الله قد دعا المستعمرين إلى الحرب. وقد لجأ الهنود وأحلافهم من القبائل إلى التجمع وحمل السلاح لارتكاب الآثام كما فعلت - في أغلب الظن - القبائل القديمة من العمالقة والفلستيين الذين تحالفوا مع غيرهم في مواجهة إسرائيل}، ويمكن تلخيص سياسة ترومان من خلال بيانه الصحفي الذي جاء فيه {إن وجهة النظر الأمريكية من فلسطين هي أننا نريد أن نسمح بدخول عدد من اليهود إليها قدر الإمكان، وبعد ذلك يبحث الموضوع مع البريطانيين والعرب بالطرق الدبلوماسية حتى إذا ما أمكن قيام دولة هناك فإن ذلك يمكن أن يتم على أسس سلمية}، وقد كان ترومان يجاهر بصهيونيته، وفي هذا السياق كان قد أعلن في معبد يهودي في مدينة نيويورك {أنا قورش.. أنا قورش}، وفي رسالة بعث بها إلى الملك عبد العزيز آل سعود يوم ٢٨ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٤٨م بعد صدور قرار التقسيم يقول فيها {من الطبيعي أن تشجع الحكومة في هذا الوقت وصول أعداد كبيرة من اليهود المرحلين من أوربا إلى فلسطين لا لكي يجدوا مأوى لهم هناك فحسب، بل ليساهموا بمواهبهم وطاقاتهم في إقامة الوطن القومي اليهودي}.

إن الرؤساء الأمريكيين، لا سيما فيما بين الحربين العالميتين وما بعدها، كانوا يمثلون رأس الهرم الصهيوني، أي بمعنى أن الشعب الأمريكي - بكل تمثيلاته المؤسساتية، بما فيها مجلسي الشيوخ والنواب - كان صهيونياً غير يهودي، لا سيما وأن الجماعات اليهودية استطاعت أن تمتلك وتُخضع وسائل الإعلام، والهيئة الأكاديمية الجامعية التعليمية لخطابها الإعلامي، وكانت الصهيونية الأمريكية إما سياسية، وإما مسيحية (بروتستانتية)، أو عاطفية من خلال صورة التماثل الذاتي في تشكيل الولايات المتحدة الأمريكية،

وإسرائيل، فكل الجماعات التي شكلت كلتا الدولتين هم دعاة للمساواة والديمقراطية في وسط شعوب ديكتاتورية، وهم مغامرون، إضافة إلى تطابق تجربة الاستيطان الإحلالي للجماعات العبرية في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، والجماعات المسيحية التي أسست الولايات المتحدة الأمريكية، والجماعات اليهودية الصهيونية في فلسطين في القرن العشرين، ففي سنة ١٩٢٩ قال القس البروتستانتي جون هاينز {عندما قابلت وتحدثت مع فالحي الأرض هؤلاء لم أكن أفكر إلا في المستوطنين الإنجليز الأوائل الذين قدموا إلى شواطئ ماساشوسيتس القاحلة، واستطاعوا أن يرسوا قواعد جمهوريتنا الأمريكية الثابتة وسط برد الشتاء في أرض لم تفلح، وبين السكان المناوئين لهم.. من الواضح أن المواطنين العرب الذين لا يقلون عنادا ووحشية عن الهنود الأمريكيين الحمر لا يمكن إبعادهم عن مسرح الأحداث}، وهو أيضا موقف الرئيس الأمريكي ترومان.

أما الرئيس الأمريكي البروتستانتي جيمي كارتر فقد قال سنة ١٩٧٩م أمام الكنيست الإسرائيلي حول العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل {علاقة لا يمكن تقويضها لأنها متأصلة في وجدان وأخلاق وديانة ومعتقدات الشعب الأمريكي نفسه.. لقد أقام الرواد وأقوام تجمعوا في كلا الشعبين من دول شتى إسرائيل والولايات المتحدة، فشعبي كذلك أمة مهاجرة ولاجئون وفدوا من شعوب مختلفة لبلدان عديدة، إننا نتقاسم معا ميراث التوراة}، وهو القائل أيضا {إن دولة إسرائيل هي أولا وقبل كل شيء عودة إلى الأرض التوراتية التي أخرج منها اليهود منذ مئات السنيين.. إن إنشاء دولة إسرائيل هو إنجاز النبوءة التوراتية وجوهره} وأن عليه {التزاما كاملا ومطلقا نحوها كإنسان وكأمريكي وكشخص متدين}.

أما رونالد ريغان (١٩٨١ - ١٩٨٩م)، فهو الذي كان يرى أن الصراع العربي على الحاضر هو الصراع الرمزي بين داود وجالوت بحيث أن داود يمثل دولة إسرائيل، وجالوت يمثل الشعب الفلسطيني، وقد تحولت هذه النظرة بطريقة معكوسة بحيث لم تعد إسرائيل هي داود، بل هي جالوت، والشعب الفلسطيني هو داود الذي يحمل المقلاع ليلقي بالحجارة على دروع الدبابات الجالوتية، ومن أقواله الشهيرة {إن النبوءات التي يجب أن تتحقق قبل هارمجدون قد تحققت كلها فعلا، يقول النبي حزقيال في الإصحاح ٣٨ إن الرب سيأخذ أبناء إسرائيل من بين الوثنيين حيث تشتتوا، وسيجمعهم ثانية في أرض الميعاد، لقد حدث ذلك كله أخيرا بعد ألفي سنة} وقد رضي ريغان أن ينعت نفسه، ومسيحي العالم، وغيرها من الأديان بالوثنيين.

أما الرئيس الأمريكي البروتستانتي الصليبي جورج بوش الابن فقد ردد بطريقة ببغائية في المؤتمر السنوي لمنظمة إيباك سنة ٢٠٠٤، ما كان قد قاله كل من الرئيسين الأمريكيين ترومان، وجيمي كارتر حول التشابه والتماثل، بل والتطابق بين التاريخين الأمريكي، والإسرائيلي.

وبالتالي فإن المسيحية الأمريكية البروتستانتية تُعَدّ بمجملها صهيونية غير يهودية، وحسب ما كتبه الباحثان الأمريكيان جورج بول ودوغلاس بول {إن المسيحيين الإنجيليين الذين يتجاوز عددهم أربعين مليونا في الولايات المتحدة، يشكلون قاعدة مؤيدة لإسرائيل، وينظرون إلى إسرائيل باعتبارها إنجازا لتحقيق النبوءة التوراتية، ويعتقدون بأن المسيح

سوف يظهر مجددا على الأرض بعد أن يكون اليهود قد بنوا دولتهم وجمعوا يهود العالم في هذه الدولة، وبنوا الهيكل الثالث}.

والأصولية المسيحية البروتستانتية (الأمريكية على وجه التخصيص) أكثر تمسكا، وإصرارا من الأصولية اليهودية على تشكيل إسرائيل الكبرى على اعتبارها المفتاح الوحيد لمستقبل المسيحية، ووصولها إلى العصر السعيد، ولذا {يجب أن يمتلك اليهود الأرض التي وعدهم بها الرب كي تصبح عودة المسيح ممكنة، ولن يكون بعيدا وقت الخلاص الجماعي}.

وفي هذا السياق يقول براد ليندسي في مقابلة مع الكاتبة الأمريكية غريس هالسل، في تعقيب حديثه على حرب ١٩٦٧م، واستيلاء اليهود على المزيد من الأراضي العربية {إني سعيد لعودة اليهود إلى أرض فلسطين، وإقامة دولة إسرائيل، ولكن اليهود لم يكملوا مهمتهم، يجب على اليهود اليوم تخليص الأراضي كلها التي أعطاها الرب للعبرانيين، كي يتمكن المسيح من العودة، على العرب أن يغادروا هذه الأراضي التي أعطاها الرب إلى شعبه المختار، ونحن المسيحيين نعرقل وصول المسيح بقلة مساعدة اليهود على أخذ الأرض من الفلسطينيين}، وبذلك فإن المسيحية الأصولية تقف إلى جانب الصهيونية، بقوة أكبر من وقوف الأصولية اليهودية، بل على العكس من ذلك، فقد وقفت بعض الجمعيات اليهودية الأصولية المتطرفة ضد الصهيونية، لأنها، أي الصهيونية، منظمة سياسية تأخذ دور المسيح الإلهي، وهذا من شأنه أن يعرقل تنفيذ السيناريو الإلهي (المثيولوجي التاريخي) على خشبة التاريخ.

وخير مثال يمكن أن نستشهد به في هذا السياق ما أتى به المؤتمر الصهيوني المسيحي العالمي الذي عقد اجتماعه الأول سنة ١٩٨٥م في مدينة بازل، وفي نفس القاعة التي عقد فيها المؤتمر الصهيوني سنة ١٨٩٧م، وفي سنة ١٩٨٨م عُقد المؤتمر الصهيوني الثاني في مدينة القدس، وقد جاء في بيانه {نحن المندوبين إلى المؤتمر الصهيوني المسيحي العالمي الثاني، المجتمعين في القدس، عاصمة إسرائيل الأبدية.. نعلن:

إثباتنا الحق المقدس لليهود بأن يعيشوا أحرارا في أرض إسرائيل كلها، بما فيها اليهودية والسامرة وغزة، واعتبارها دولة يهودية.

تشجيعنا لعودة الشعب اليهودي كله من الشتات إلى أرضه، استجابة لدعوة الله الملحة والحنونة والمعبر عنها في أنبيائه.

ونحن ندعو الدول جميعها إلى الاعتراف بقداسة ما وعد الله به الشعب اليهودي من إعطائهم أرض كنعان ملكا أبديا، واحترام هذا الوعد}، وقد اعتبر أعضاء المؤتمر أن مدينة القدس (مدينة داود) هي العاصمة الأبدية لدولة إسرائيل، وطالبوا القيادة الإسرائيلية بضم الضفة الغربية إلى دولة إسرائيل، وبدا أعضاء المؤتمر المسيحيين كما لو أنهم أشد يهودية، وصهيونية من الصهاينة اليهود أنفسهم، بل إن أحد اليهود الإسرائيليين الذين كانوا يحضرون المؤتمر حاول أن يخفف من اللهجة الدينية الأصولية المسيحية المتعصبة، لأنها تتعارض مع المعطيات السياسية الحاضرة، كما صرّح بأن اليهود يمكنهم أن يبادلوا الأرض بالسلام، فوقف القس الهولندي في وجهه قائلا {لا يهمنا اقتراح الإسرائيليين، إن ما يهمنا هو ما يقوله الرب، وقد أعطى الرب هذه الأرض كلها إلى اليهود}.

وفي هذا السياق الأصولي المتطرف من قبل الصهيونية البروتستانتية يقول السيد أوين، أحد الأصوليين المسيحيين (الدهريين) الذين كانوا من المدافعين، والمسوغين لأعمال العنف التي تنفذها المؤسسة العسكرية الإسرائيلية ضد الشعب العربي الفلسطيني المسلم {إنني أقول إن الإرهابيين اليهود سوف ينسفون الأماكن الإسلامية المقدسة، وذلك سيستفز العالم الإسلامي إلى حرب مقدسة مزلزلة ضد إسرائيل، تجبر المسيح على التدخل، يؤمن اليهود بأنه قادم للمرة الأولى، ونحن المسيحيين نؤمن بمجيئه الثاني}، ويشير هنا، أو يحرض السيد أوين المتطرفين اليهود على نسف مسجد قبة الصخرة الذي يقوم، حسب اعتقادهم، في مكان الهيكل اليهودي المقدس.

وهذه الأصولية المسيحية البروتستانتية على وجه الخصوص، هي التي شكلت البنية التحتية العقيدية الدينية للحرب الإمبريالية على العالم الإسلامي، أو ما يسمى، حسب وسائل الإعلام الغربية، الحرب على الإرهاب، على اعتبار أن الإسلام، أو العالم الإسلامي هو مصدر الإرهاب في العالم، ويقوم التصور البروتستانتي لتلك الحرب الصليبية البروتستانتية، على أن هذه الحرب سوف تحرض، وتحمّي التاريخ للوصول إلى معركة هارمجدون، وبالتالي مجيء المسيح، وإقامة دولة إسرائيل الدينية، وبعد انتهاء حرب هارمجدون الكونية التي سيقوم فيها أبناء النور (المسيحيون) بقيادة المسيح بتدمير أبناء الظلام، الطغاة، والأشرار (المسلمين) في العالم، ومن ثم سينفتح التاريخ على الألفية السعيدة، وما احتلال العراق سوى مساهمة بروتستانتية في هذا السيناريو الديني العقيدي، وما تعبير (حرب صليبية) التي قالها الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن، بُعيد أحداث الحادي عشر من سبتمبر الشهيرة، والتي اعتبرها الإعلام الأمريكي زلة لسان، سوى تعبير عن لاوعي جمعي، يتنضد فيه التصور الديني للشعب الأمريكي المسيحي بشكل عام، ورجالات البيت الأبيض بشكل خاص.

بل إن بعض الأصوليين المسيحيين من البروتستانتيين الأمريكيين تبنوا التصور اليهودي التلمودي الذي يذهب إلى أن معركة هارمجدون سوف يسبقها حروب تمهيدية مع العرب، كما أن اليهود يمكنهم أن يقوموا ببناء هيكل مقدس مؤقت في مدينة أورشليم (القدس) بينما يأتي المسيح، وينزل الهيكل المقدس الأبدي من السماء.

أما بالنسبة للعلاقة المصلحية بين الصهيونية بدولتها (إسرائيل)، وبين الإمبريالية الأمريكية حصرا، والتي في وقت قياسي استطاعت أن تترأس، ومن دون منافس على قيادة الإمبريالية العالمية، فتتمثل في عدة بنود على رأسها:

إن الولايات المتحدة الأمريكية تريد من دولة إسرائيل أن تحوّل دورها الوظيفي الاستعماري التقليدي لمصلحة الولايات المتحدة حصريا، بحيث تصبح قاعدة عسكرية أمريكية بالخاصة، كي تهيمن من خلالها على دول الشرق الأوسط التي تحتوي على أكبر احتياطي نفطي في المنطقة، كما أنها تشكل منطقة ذات أهمية حيوية إستراتيجية على المستوى الجغرافي.

أما النقطة الثانية، أو الدور الوظيفي الثاني الذي تريده الولايات المتحدة الأمريكية من دولة إسرائيل، فهو الوقوف في وجه مصالح الدول الأوربية في منطقة الشرق الأوسط، وهذا التوجه الأمريكي بدأ بالبروز بعد العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦م التي تعاونت فيه إسرائيل مع كل من المملكة المتحدة، وفرنسا، من أجل مصالحهم

المشتركة في قناة السويس، وقد استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية أن تجهض هذا التحالف، ومن ثم استطاعت بعد مدة قصيرة من احتواء دولة إسرائيل، وقطع السلسلة التي تربطها بدول أوربا الغربية بشكل عام، وأن تقوم باحتكار، وتوظيف دولة إسرائيل لمصلحتها الخاصة، وتجلى هذا في حرب سنة ١٩٦٧م، والتي تشكل، حسب رأي البعض، حلقة من سلسلة حرب عالمية ثالثة تقوم بها الولايات المتحدة الأمريكية، وقد وظفت، أو وكّلت الولايات المتحدة الأمريكية دولة إسرائيل بالقيام بهذه الحلقة، والتي كان الغاية منها وصول الولايات المتحدة الأمريكية إلى أفريقيا عبر البحر الأحمر، وحصر النفوذ الأوربي فيها، فمن خلال إغلاق قناة السويس تم حرمان أوربا من القناة التي تُعَدّ من الشرايين المهمة في الاقتصاد الأوربي، وليس الأمريكي، ولا سيما بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفييتي، وفي النهاية استطاعت أمريكا، وعلى مراحل عديدة ومزمنة، أن تكنس التواجد الأوربي نهائيا من منطقة الشرق الأوسط، وعلى الرغم من أن أوربا تحاول دون كلل، أو ملل أن تدس برأسها هنا وهناك خلسة، ولكن الولايات المتحدة الأمريكية تبعده بكل صفاقة أحيانا، وهو ما نراه في الآونة الأخيرة يتمثل في الجدال القائم بين الولايات المتحدة، والدول الأوربية حول التدخل في مباحثات السلام بين الجانبين العربي والإسرائيلي، وما شهدناه أيضا في سياق تحضير الولايات المتحدة الأمريكية لحربها على العراق، والتي استطاعت أن تحقق فيها ما أرادته على الرغم من معارضة الدول الأوربية التي تبنته كل من فرنسا، وألمانيا، وأصبحت المنطقة كاملة رهينة للسياسة الأمريكية دون منازع، ولم يتبق للأوربيين سوى ازدراد الهزيمة سرا.

أما بالنسبة للدور الإسرائيلي في تلك الحرب الصليبية الإمبريالية العولمية الأخيرة، فله جوانب متعددة، على رأسها هو تجنيد اللوبي الصهيوني اليهودي في تهيئة الرأي العام الأمريكي، وجعله يقف إلى جانب (نسور البيت الأبيض)، كبديل عن الدور العسكري الإسرائيلي الذي ارتأت الولايات المتحدة أن تحيّده في ضرباتها العسكرية الثلاث على العراق، نظرا لحساسية هذا الموضوع بالنسبة لأصدقاء أمريكا من العرب، ولكن لنا أن نعتقد أن الصهيونية الإسرائيلية سوف تتحسس من تحييدها، وستشعر أنها ربما ستفقد شيئا ما من دورها الوظيفي في المنطقة بعد أن أصبحت القوات الأمريكية في قلب المنطقة، على الرغم من لهاث المؤسسة العسكرية الإسرائيلية الشديد وراء تنفيذ أي مهمة تكلفها بها الإمبريالية الأمريكية سيدة النظام العالمي الجديد.

إن دولة إسرائيل تدرك أن النظام الإمبريالي ككل، ومن خلال الفلسفة العلمانية النفعية التي يتبناها، ينظر إلى إسرائيل بمقدار ما تحقق له من منفعة على المستويين المباشر والاستراتيجي، فإسرائيل بالنسبة للإمبريالية تقوم بدور وظيفي، وأهميتها، ومقدار التمسك بها يتعلقان بعمق المفاضلة ما بين ما تتكلفه الإمبريالية من خدمات متنوعة للحفاظ على استمرارية الكيان الإسرائيلي كمقيم غير شرعي، وما بين المردود العسكري، والاقتصادي قصير، وبعيد المدى الذي تجنيه من توظيف هذا الكيان، هذا إذا ما غضضنا النظر عن دور اللوبي الصهيوني في إضفاء المزيد من الأهمية على دولة إسرائيل.

إن إسرائيل بدأت، بعد حرب ١٩٧٣م، تدرك، على قلق، أنها قد تخسر دورها الوظيفي في المؤسسة الإمبريالية الأمريكية، لا سيما إذا ما أدرك الجانب العربي العلاقة العجائبية بين الإمبريالية الأمريكية والدولة الإسرائيلية، وقد بدأ القادة الصهاينة يعتقدون أن

العرب مهما كانوا مغفلين فإنهم سيتعلمون من أخطائهم وسوف يدركون كيف يندخلون في اللعبة العالمية، وبالتالي سوف يسحبون البساط من تحت دولة إسرائيل، والتي ستقع على الأرض في العراء، وسوف تقوم الذئاب العربية (الانتقامية) بتقطيع أوصال اليهود فيها، وبمباركة من الدول الراعية الآن، لأن دولة إسرائيل ستكون مصدر إزعاج للدول الراعية، وستصبح أشبه ما يمكن بمسن يحتاج إلى رعاية دون أن يقدم أي فائدة أي أنها ستتحول إلى عبء على الإمبريالية العالمية، بعد فقدانها جوهر دورها الوظيفي في المنطقة بسبب المستجدات، والاختراعات، والتطور الكبير بصناعة الأسلحة، وبذلك فحسب الداروينية، والنيتشوية، والنازية، فيجب إبادة الكيان اليهودي، أو التخلص منه، لانتهاء فعاليته الزمنية، مثل أي منتج صناعي.

ودولة إسرائيل، وبالتعاون مع اللوبي الصهيوني في أمريكا، ومن خلال تغذيتها لكل ما من شأنه أن يبقي المنطقة في حالة أزمة، وحالة مسرحة سياسية عسكرية تقدم لدولة إسرائيل فرصة وظيفية للقيام بدور عسكري، والذي بدأت أهميته العسكرية بالتراجع بعد تطور منظومات الأسلحة، وخاصة منها الجوية والصاروخية التي أصبح بإمكانها الوصول إلى أماكن بعيدة مع الحفاظ على طاقتها التدميرية، ولذا فإسرائيل منذ الآن تبحث عن تعزيز دورها الذي بدأ بالتآكل، والطرح الذي تتبناه الآن الصهيونية، وتحث الدول الصناعية لأن تقدم التسهيلات اللازمة كي تصبح دولة إسرائيل سوقاً تجارية (سوبر ماركت) في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقية، والذي من خلاله يمكن فتح مكاتب وساطة، وأماكن ترفيهية تجيز فيه أو تقدم فيه كل أنواع المحرمات، ولكن هذا الدور الذي كانت قد هيأت له الولايات المتحدة الأمريكية من خلال طرح مفهوم السوق الشرق أوسطية، والتي ستجعل من الدول الحليفة لها وعلى رأسها إسرائيل، وتحتها تركيا، ومصر، وبعض دول الخليج مثل قطر، هي مقر الوكالات أما باقي الدول فهي الزبائن، ولكن دول المواجهة (الزبائن) استطاعت، إلى الآن، أن تُفشل بناء هذا السوق.

ولكن الإمبريالية العالمية، وبدعم من اللوبي اليهودي، ترى أنها ما زالت تحتاج إلى الدور الوظيفي الذي تشغله دولة إسرائيل، ولذا فعلى الإمبريالية تقديم على الدعم للصهيونية اليهودية كي تحافظ على دولة إسرائيل ما دامت تحقق دورها الوظيفي، والتي يأتي على رأسها كون القوة العسكرية الإسرائيلية أداة في يد الإمبريالية، وهي تقوم بدور مباشر، أو غير مباشر، وبتكاليف غير باهضة، بتفتيت كل المشاريع النهضوية في المنطقة العربية، وإبقاء البترول العربي تحت سيطرة الدول الغربية، وفي هذا السياق يقول جوزيف لينز سنة ١٩٩٢ وهو سكرتير سابق لحلف الناتو {إن إسرائيل كانت المرتزق الأقل كلفة في عصرنا الحاضر}.

وإسرائيل تحاول أن تعلو على دورها الوظيفي الأداتي بحيث تحاول أن تصبح شريكاً للإمبريالية، وهي تسوق نفسها للإمبريالية أن بإمكانها أن تشكل عاصمة، أو سوبر ماركت في الشرق الأوسط لتسويق الصناعات الغربية، بعد تشكيل السوق الشرق أوسطية المشتركة بعد فرض السلام حسب ما ترتئيه الصهيونية، بحيث يكون الإسرائيليون خبراء، ووكلاء للصناعات الإمبريالية، أما العرب (الممولون لهذا المشروع)، فدورهم لا يتعدى كونهم مستهلكين.